
المشروع القومي للترجمة
الموالد والتصوف في مصر
تأليف: نيكولاس بيخمان
ترجمة وتقديم: رءوف مسعد
المركز القومي للترجمة
1185



هناك اهتمام شعبى عميق بالموالد الدينية القديمة وبنظيرتها المعاصرة هذا الاهتمام يوثق الروابط بين عناصر الثقافة الشعبية. وهذا المزج بين التدين العميق، والمرح البرىء، يرسى بقوة مبدأ التدين فى الحياة اليومية.

يتناول هذا الكتاب الموالد الإسلامية والمسيحية كما يتناول مولدًا يهوديًّا واحدًا فى مصر، ويسعى إلى الغوص فى خبايا التصوف الوثيق الصلة بالموالد الإسلامية. يقول المؤلف: "إن على مصر أن تفخر بحيازتها لمثل هذا التنوع الفريد لهذه الظاهرة العبقرية".

الموالد والتصوف فى مصر

المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد: ١١٨٥
- الموالد والتصوف فى مصر
- نيكولاس بيخمان
- رءوف مسعد
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب :

Moulids Saints Sufis
EGYPT
by : Nicolaas H. Biegman

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس : ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
e.mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel : 27354524 - 27354526 Fax : 27354554

الموالد والتصوف فى مصر

تأليف : نيكــولاس بيخمــان

ترجمة وتقديم : رءوف مسعد



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بيخمان ، نيكولاس
الموالد والتصوف فى مصر
تأليف : نيكولاس بيخمان ، ترجمة وتقديم: رءوف مسعد . ط١ .
– القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٨ .
٢١٦ص ، ٢٩سم × ٢٥ سم
١– الموالد
٢– الأئمة والأولياء
أ– العنوان. ٣٩٤,٢

رقم الإيداع : ١٣٥٦٧ / ٢٠٠٨
الترقيم الدولى : 977-437-793-1
طبع بمطابع الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارت المشروع القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم المختلفة، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

- مقدمة المترجم 7
- مقدمة الطبعة العربية 11
- مقدمة الطبعة الإنجليزية والهولندية 15
- المولد 21
- الأولياء والقديسون 87
- أهل الله 133
- الزار 189
- خاتمة 195
- ملحق : أناشيد صوفية معاصرة 199

مقدمة المترجم

تعرفت على الدكتور نيكولاس بيخمان، حينما كان سفيرا لهولندا بالقاهرة في العام 1986 ورافقني في رحلة إلى السودان. توثقت علاقتنا أثناء الرحلة. كان قد قرر السفر إلى السودان يبحث عن الموالد هناك. لم أكن قد رافقته بعد في رحلاته الاستكشافية عن الموالد في مصر.

طلب مني أن أرافقه أحيانا(حينما يُتاح الوقت لي -حسب تعبيره-) في رحلاته داخل مصر للتعرف على موالدها وعلى أهل الطريق، ولكي أساعده في الترجمة من العامية إلى الإنجليزية أو العكس. وافقت على طلبه هذا بقدر من التحفظ. تحفظي نبع من عدم اهتمامي بموضوع الموالد أو التصوف. كنت مثل غيري من الكثيرين من المثقفين المصريين اليساريين، أعتبر الموالد وكل ما يمت لها بصلة، ظاهرة من ظواهر الماضي المتخلف.

لكن حب الاستطلاع تغلب عليّ. كنت قد غادرت مصر عام 1970 ولم أعد إليها إلا في عام 1982، وكنت أشعر أنني أجهل الكثير عن هذا البلد الذي أنتمي إليه بحكم جذوري. لذا قررت أن أصاحبه في رحلاته هذه، بغرض أن أتعرف على ما أجهله. وبالفعل كانت رحلات ممتعة أضافت إلى معارفي الكثير عن التدين الإسلامي والمسيحي، وعن عادات المسلمين والمسيحيين المتشابهة في الاحتفالات بموالد الأولياء والقديسين، وعن التسامح الحقيقي بين أهل التصوف الذين تقبلوننا كما نحن.

هكذا اكتشفت خطئي النابع عن جهلي بظاهرة مهمة من الظواهر المصرية!

ومنذ وقت ليس بالبعيد اقترحت على الدكتور بيخمان، ذات مساء في أمستردام، محاولة تقديم كتابه للترجمة، إلى المجلس الأعلى للثقافة في مصر؛ فقد كنت أعرف اهتمام الدكتور جابر عصفور أمين المجلس وقتها بالترجمة إلى العربية وخاصة

المؤلفات التي تهتم بإبراز الحالة الإنسانية المصرية، غير تلك التي تركِّز على نقلها وكالات الأنباء وتؤكد عليها بعض الأطراف المتعصبة من الطائفتين.

وحينما عُرض الكتاب على الدكتور عصفور، كان - أيامها - قد قرر أن ينقل عمله وكفاءته وخبراته، إلى مركز الترجمة، مصطحبا معه مساعديه الأكفاء، وحينما جاء الدكتور بيخمان إلى القاهرة ليتعرف على الدكتور عصفور، وعلى الدكتورة شهرت العالم، مسئولة النشر في المركز، وجدنا ترحيبا صادقا بترجمة الكتاب.

عرضتُ أنا أن أقوم بالترجمة؛ لمعرفتي بالأسس التي استند إليها الكتاب، ولمعرفتي أيضا ببعض أفكار الديانة المسيحية المتعلقة بالرهبنة والقديسين والمعجزات.

تحمست أيضا للترجمة؛ لاعتقادي أن هذا الكتاب يلقي الضوء لأول مرة على الرؤية المسيحية - القبطية الأرثوذكسية، لمبدأ القداسة والأعمال العجائبية، مثل طرد الأرواح الشريرة والشفاء من الأمراض المستعصية.

لا يهدف هذا الكتاب إلى تأكيد أو نفي الولاية والقداسة. إنه كتاب يهدف إلى توضيح عالم مجهول؛ توضيح التشابك بين المؤمنين من ديانات مختلفة، ورؤيتهم لعالم غير مرئي، يؤمنون بوجوده؛ عالم الأولياء والقديسين، يسيحون في الأرض ويساعدون الناس على التخفف من آلامهم الغامضة، ويشدون من أزر الضعفاء والمستضعفين في الأرض على احتمال كيد وظلم الآخرين المستكبرين في الدنيا. يلتجئون إلى هؤلاء الأولياء والقديسين يطلبون الشفاعة في الآخرة، والإنصاف والصبر في الدنيا كما يقول أهل الطريقة الرفاعية حينما يشكون الناس إلى الخالق "حسبنا الله ونعم الوكيل" !

علمني أهل التصوف الإسلامي الكثير، عن المحبة والرفق بالآخرين، والتوثق من اكتشاف "الطريق" والإيمان بقدسية الإنسان وبقدراته اللامحدودة.

تطور فهمي للتدين الشعبي في مصر، وهو تدين تمتد جذوره إلى ما قبل المسيحية ويستمد حيويته واستمراريته من مخزون هائل داخل مصر. يمزج بين النيل والوادي والصحراء والناس، على جميع اعتقاداتهم الدينية.

هذا التدين الشعبي هو التفسير الإنساني لرؤية العبقري جمال حمدان الجغرافية عن عبقرية مصر المكانية.

رءوف مسعد - أمستردام، أكتوبر، 2007



دراويش من الطريقة الرفاعية ، يغادرون الجامع الأزهر أثناء مولد الحسين . التقطتُ هذه الصورة عام ١٩٦٥ ، فى تلك الأيام كان يمكن رؤية الدراويش فى ثيابهم المرقعة المتميزة.

مقدمة الطبعة العربية

حينما صدر كتابي " مصر؛ موالد وقديسون وتصوف " EGYPT Saints and Sufis عام 1990 كان أول كتاب عن الموالد بعد كتاب ماكفيرسون: الموالد فى مصر." The Moulds of Egypt"

وبين الكتابين فاصل زمني يقرب من خمسين سنة. هذا يعطينا تصورا عن درجة الاهتمام بظاهرة الموالد في كل من الغرب وفي مصر. على الرغم من جماهيريتها الشعبية، ففي مصر يعتبر ظهور بعض الموالد تحصيل حاصل ولا يُنظر إليه باهتمام؛ فما زال عدم التقدير مستمرا لهذه الاحتفالات الأصيلة.

لذا فإني أشعر بغبطة بالغة لترجمة كتابي إلى العربية ليلحق بترجمة ماكفيرسون التي ظهرت منذ عهد قريب.

حينما تعثرت في المولد الأول بالنسبة لي عام 1965 كان هذا حبا للناس من النظرة الأولى.. فالفعاليات التي شاهدتها متألقة في أبهى حالاتها: الموسيقى والألوان والألفة الودودة التي يبديها الناس تظهر روح التسامح والتقبل. كانت فعاليات جماعات الطرق الصوفية الذين جاءوا من أنحاء البلاد ليحتفلوا بمحبتهم لله، إضافة أخرى تنمي إحساسي بأني وجدت طبيعة مصر الحقيقية.

كان من حسن طالعي في الثمانينيات أن أقضي أربع سنوات أخرى في مصر، أيامها كانت الموالد لا تزال موجودة ممتلئة بالحيوية ومتعددة مثلما كانت. وافقت أنا على النصيحة التي قدمتها زوجتي "ميرا " بأن أهتم وأسجل ما أراه في الموالد، فقمت برصد أماكن ومواعيد الاحتفالات، وتعرفت على التصوف من خلال السفر ولقاءاتي مع مشايخ عديدين للطرق الصوفية، كما التقطت الكثير من الصور الفوتوغرافية دون مشاكل. قدم لي العمل في الكتاب فرصة السفر بشكل واسع في طول البلاد

وعرضها وفي أوقات مختلفة من السنة. وبسبب اهتمامي بالطرق الصوفية قمت بزيارة الموالد الإسلامية، والموالد المسيحية، وأيضا المولد اليهودي الوحيد في مصر. هذه كلها كانت من أمتع الأشياء التي قمت بها في حياتي، وكلما قضيت وقتا أطول في الموالد ومع أهل الطرق الصوفية، تعمق انطباعي بكرم ضيافتهم والمودة الصادقة، وإحساسهم الخاص بالفكاهة والمرح، وبتواصلهم مع العادات والتقاليد التي ترجع إلى أكثر من ألف سنة.

وبعد انتقالي من مصر عام 1988 حافظت على الاتصال بالشيخ زاهر؛ فقد أصبحت قاعدة لي أن أزوره كلما سنحت لي الفرصة للقدوم إلى مصر. حدث هذا بضع مرات خلال التسعينيات، وكذا في عامي 2004 و 2007، وكان كريما كعادته في السماح لي بالتقاط الصور له ولمريديه، وبتزويدي بمعلومات إضافية لكي أستخدمها في كتابي الذي أكتبه عن التصوف والشعائر الصوفية.

رافقني رءوف مسعد في العديد من هذه الجولات للموالد والمقابلات في الثمانينيات، وقام بالترجمة، وشرح ما نشاهد ونسمع. الآن استقر في أمستردام مع أسرته وأصبح واحدا من أصدقائي المقربين.

.. فإذا ما دار هذا الكتاب دورة كاملة بعد عشرين سنة ورجع إلى مصر بلغة أهلها فإني أشعر بالرضا العميق؛ فالموالد كانت ولا تزال تمثل نشاطا غير تقليدي، وتهاجمها دوائر إسلامية بعينها، باعتبارها عملا ليس سلفيا، وأحيانا يأتي الهجوم من جانب الدولة باعتبارها مضيعة غير مجدية للوقت.

لكن الموالد واصلت البقاء لأن الناس عرفوا قيمتها؛ حيث تتمحور حولها علاقات التآزر الاجتماعي والاحترام المتبادل والتسامح والزهد في متاع الدنيا. وقبل كل شيء، فإن الموالد واصلت استمراريتها، لأن الناس ببساطة يرتادونها دون أن يفكروا كثيرا فى الأسباب التي تدعوهم لذلك.

إن الموالد ليست في حاجة إليّ كي تواصل استمراريتها. وإني لآمل أن يقوم هذا الكتاب بمساعدة بعض القراء المصريين لكي يعمقوا اهتمامهم بهذه الحقيقة المتعلقة بثقافتهم التليدة، وليشعروا بأنهم محقون في أن يفتخروا بها.

أمستردام -أبريل -2007



المكان الذي يقوم فيه عبد الغني خليل بإجراء " الطهور" للصبية في مولد الحسين بالقاهرة التاريخ 1966 -8-16.

مقدمة الطبعة الإنجليزية والهولندية

يتمحور هذا الكتاب حول مجموعات متراكمة من الصور الفوتوغرافية التقطتها في معظم الأوقات إبان الاحتفالات والأعياد الدينية في القاهرة، وأماكن متفرقة ومترامية في مصر. وهذه الصور هي محصلة انطباعات لا تدعي أنها تقدم إنجازا شاملا للممارسات الدينية ولا تفسيرا كاملا لها. كما أن هناك بضعة كتب ودراسات ممتازة حول كل ما يطلق عليه اصطلاح MYSTICISM (*) أو قديسون ومعتقدات شعبية.

يوجد في الفهرس الأخير من الكتاب ثبت بما قمت بالاستناد عليه هنا(**). هدفي الأساسي هو أن أمكّن القراء في الغرب من فهم بعض الأشياء التي يلتقون بها في الموالد التي يزورونها. شاهدت أنا أول موالد بالنسبة لى في الستينيات (من القرن العشرين) حينما أقمت - لأول مرة - في القاهرة. لقد تأثرت كثيرا بما شاهدته. كنت آنذاك أكتب رسالة الدكتوراه؛ لذا لم يكن عندي الوقت الكافي لكي أتمعن في دراسة هذه الظاهرة الجديدة عليّ. وحينما رجعت مرة أخرى لمصر عام 1984 تبددت مخاوفي، حول اختفاء الموالد باعتبارها جزءا من الماضي. لدهشتي وجدتها في تزايد. هذه المرة استفدت من وضعي (سفيرا- المترجم) بأن أقوم بدراسة هذه الظاهرة المصرية بامتياز.

ينقسم هذا الكتاب إلى أقسام ثلاثة: الموالد، القديسين، ثم أهل التصوف، لكن الأجزاء الثلاثة يتداخل بعضها مع بعض بانسياب؛ فعلى المستوى الشعبي نجد أنه من الصعب الحديث عن جزء دون ذكر الأجزاء الأخرى .

(*) يعرف قاموس إلياس هذا المصطلح بما يلى : المذهب الصوفى (التصوف) بأنه مذهب الحلول، العلم الروحانى. وقد اخترت أنا مفهوم التصوف لكى يعطى معنى شاملا للقديسين المسيحيين الذين اختار معظمهم الرهبنة قبل أن يصبحوا قديسين. (المترجم)

(**) المراجع المثبتة فى الطبعتين الإنجليزية والهولندية، لم نترجمها إلى العربية، إلا عند استخدام مقاطع منها فى النص العربى. (المترجم)

ليس على المرء أن يكون صوفيا لكي يتوسل بالأولياء طلبا للعون، كما أنه يحتفل بموالدهم دون أن يكون صوفيا، كذلك من الجائز تماما أن تكون صوفيا دون إيمان بكرامات الأولياء أو حتى الاحتفال بموالدهم. إن التصوف ظاهرة إسلامية بامتياز، ولا توجد في المسيحية. . ورغم أن الكثير من أولياء المسلمين لهم خلفيات صوفية، يوجد أيضا أولياء عاشوا قبل ظهور التصوف والطرق الصوفية. كما أن هناك أولياء، عاصروا التصوف، واكتسبوا الولاية دون أن يمروا عبر التصوف.

عن الموالد المصرية يمكن الحديث بلا نهاية. وكذا سرد الروايات التي تروى عن الأعمال العجائبية والخوارق التي مارسها الأولياء والقديسون. هدفي إذن من تسجيلها هنا أن أرويها كما هي؛ لأن من رووها لي يؤمنون بها، وقد سجلتها بأمانة حتى لو كانت بعض التفاصيل صادمة للقارئ، تعمدت إيرادها لكي أظهر التلاحم بين السمو الديني والرفعة، وبين اليومي العادي. بعض الصور في هذا الكتاب تظهر بعض الناس وهم على قيد الحياة. كما أنني سجلت الروايات عن الأولياء والقديسين كما حكاها لي شهود العيان. كذا أوردت الروايات عن السلف من الأولياء والقديسين كما رُويت لي أو كُتبت.

بالإضافة إلى الحكايات التي سمعتها من أناس التقيت بهم، فإني استعنت بنصين مطبوعين عن الأعمال العجائبية : الأول متخصص في ترجمة حياة الشيخ أحمد رضوان، والثاني لترجمة حياة البابا كيرلوس السادس. هذان الشخصان كانا ملء السمع، في الستينيات في مصر، كل في محيطه. يتذكرهم الناس حتى الآن. وقد استعنت بكتيب أصدره مؤخرا الشيخ محمود، ابن الشيخ رضوان؛ لأنه يلقي ضوءا مهما على فلسفة التيارات الرئيسية للتصوف في مصر.

في بداية تسطيري لهذا الكتاب لم تكن هناك فصول مكتملة أو مرتبة؛ كنت أكتب بشكل تلقائي مصغيا إلى موسيقى التواشيح الدينية، وموسيقى الموالد التي اقتنيتها خلال تجوالي فيها. كانت المشاهد التي شاهدتها تتراءى أمام عيني مليئة بالألوان وضاجة بالحيوية، ثم بدأت تدريجيا ألقي بالأسئلة وأجمع الحكايات وأدون الملاحظات. كان شعاري هو ما قاله بيكاسو: " لم أبحث، لكني وجدتُ!" وكنت حينما أقصد أن أبحث عن شيء محدد، غالبا، كنت أجد شيئا آخر مختلفا.

سيكون هذا الكتاب للعديد من معارفي من المصريين من أصحاب التذوق الثقافي المرتفع، هو لقاءهم الأول مع القديسين والأولياء والموالد. إنه عالم مختلف عن عالمهم. عالم من السهولة بمكان عدم الاقتراب منه ومعرفته لمن كان في قمة الهرم الاجتماعي. وهو عالم يجهله الأجانب الذين لا يتكلمون العربية. أو لعلني أكون دقيقا؛ إذ أقول إن عالم الطبقات العليا وعالم الأجانب في مصر هو العالم المختلف، لأن ما أصفه هنا هو ظاهرة جماهيرية جماعية. فبعض الموالد يتوافد عليها ما يقرب من المليون زائر.

غالبا ما يكون لكل قرية مصرية ولي أو أكثر، يُبنى له مقام. وتحظى المدينة بأكثر من ولي بينما يوجد العشرات من هذه المقامات والأضرحة في القاهرة. يحتفل المسيحيون بموالدهم باحتفالات أقل بهرجة نوعا ما. ويحتفلون بموالدهم الكبرى في الأديرة البعيدة عن المدن، أو في قلب الصحراء. ولم ألتفت إلى هذه الموالد إلا في مرحلة متأخرة من إقامتي في مصر، حينئذ أدركت كم هي متشابهة اعتقادات المسلمين والمسيحيين في مصر، وخاصة بالنسبة للأعمال العجائبية الخارقة المنسوبة للأولياء والقديسين. بعض هذه الخوارق تتشابه مع مثيلاتها في ثقافات دينية كونية أخرى موجودة خارج مصر، لكن معظمها له جذور من الاعتقادات الدينية من العصور الفرعونية. إن ماضي مصر وتاريخها الحالي، مرتبطان بقوة في هذه الظاهرة التي أتحدث عنها هنا في هذا الكتاب. بينما يعتبر البعض أن مصر هي المهد الأول لديانة التوحيد، لكنها بالتأكيد احتضنت الديانات التعددية، يتضح ذلك بجلاء في الاعتقادات الدينية الشعبية الحالية.

على الرغم من أن مصر لم تلعب دورا مهما في صعود الإسلام؛ فإنها مذكورة ثماني عشرة مرة في القرآن، كما أنها لها صوت مسموع في شؤون الإسلام السني من خلال جامعة الأزهر في القاهرة، كما أنها تضم واحدا من أكبر التجمعات الصوفية النشطة في العالم الإسلامي. هذا التجمع الذي يحافظ على أساليب التأمل الذاتي التي تحيط بالطرق الصوفية منذ أكثر من ألف سنة.

من أهم مظاهر الزهو المصرية؛ أن مصر كانت كيانا متماسكا منذ حوالي خمسة آلاف سنة حتى وهي تعاني من الاحتلالات المختلفة؛ فهي بلد لها شخصيتها المتميزة، كما أن التراث الفني المصري الباهر لا يحتاج إلى تعريف.

بالإضافة إلى ذلك، نجد أن الشعب المصري، يمتلك تراثا حيا، يضاهي ذلك الفني التليد، يحتوي على شاعرية تحيط بكل وجوده. هذه الشاعرية ليست بالضرورة أن تتكون من إيقاعات مبهجة فقط، لكنها تمتلك أيضا قسوة ورهبة تختلط بقوة في الحياة اليومية، حتى إن الكثير من المصريين لا يلاحظونها، باعتبارها أمرا اعتياديا. كما أن غير المصري لن يلتقي بها إلا إذا بحث عنها؛ حينئذ سيجد هذه الظاهرة بكل مكوناتها الشاعرية المختلفة موجودة وبكثرة.

يدهشنا تلاحم المقدس والدنيوي في مصر من خلال موالدها المختلفة، ويعتبره البعض من مخلفات العصور الوسطى. ينطبق هذا تماما ونحن نتأمل عوالم القديسين والمعجزات في الغرب. إن اصطلاح العصور الوسطى هنا لا يقصد به التعبير عن تقييم حضاري لحركة مجتمع ما، بل عن حقبة تاريخية محددة لها مظاهرها..

في ختام هذه المقدمة، سأورد بضع كلمات عن السياسة باتخاذ نماذج من البلدان الإسلامية. لقد انقضى وقت قبل أن أكتشف عدم وجود صراع بين الحكومة المصرية والجماعات الصوفية، على العكس يبدو وجود تفاهم من نوع ما بين المؤسستين. يندرج هذا التفاهم أيضا على العلاقة مع الكنيسة القبطية. هذا التفاهم يتأسس بوجود عدو مشترك: هو الجماعات الإسلامية الأصولية. بالتالي؛ فإن هذا التفاهم جمعهم في تحالف مشترك.

على الرغم من أن الجماعات الصوفية تواجه انتقادات من المفكرين التقدميين، وأيضا من المسلمين المتشددين، فإن علاقاتهم مع الدولة تبدو أحسن بكثير مما كانت عليه سابقا من خمسين سنة. هذه الجماعات تتشكل من أعداد غفيرة من قاطني التجمعات الزراعية. جماعات لا تهتم بالدعاوى الإسلامية المتشددة.

فإذا لم تتحول مصر إلى نظام إسلامي متشدد؛ فالفضل في ذلك يرجع إلى الحضور القوي للجماعات الصوفية.

ليس بإمكاني أن أذكر هنا كل الأشخاص الذين ساعدوني في المراحل المختلفة لهذا الكتاب. بجانب الشيخ زاهر والأب ماكسيموس، هناك أيضا الكثيرون من الناس العاديين، فقد كان للشيخ زاهر والأب ماكسيموس الفضل في تزويدي بمعلومات

ممتازة. أشكر أيضا السيدة أنا ماري شيميل، التي تكرمت بقراءة المسودة وقدمت لي اقتراحات بناءة، فقد أفدت كثيرا من كتابها mystical dimensions of Islam الذي استعرت منه مجموعة من المصطلحات والتعبيرات والفقرات.

كذا السيد بيرت نينهاوس، وهو مصور فوتوغرافي محترف، ساعدني في بعض المسائل التقنية، والسيدة إليزابيث فيكيت من جامعة بنسلفانيا، التي أمدتني بعدد من المراجع المفيدة للغاية.

أشكر أيضا العاملين في المعهد الهولندي للدراسات الأثرية والإسلامية بالقاهرة، ومديره الدكتور خيس فيرستييخ، الذين قدموا لي مساعدات غير محدودة، وكذا الجامعة الأمريكية بالقاهرة ومديرها الدكتور ريتشارد بيدرسون.

صاحبني رءوف مسعد في زيارات واكتشافات لموالد لا حصر لها، كانت مساعدته لا غنى عنها في التعامل وفهم نصوص العامية المصرية.

أخص زوجتي "ميرا" بالشكر. أهدي إليها هذا الكتاب؛ فهي التي دفعتني إلى كتابته، كما أنها قادتني في الاتجاه الصحيح بعيدا عن النصوص الجامدة والمنطق البارد بقراءتها المدققة للمسودات الأولى.

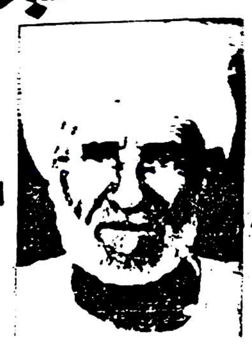
الشكر لهؤلاء جميعا!

القاهرة، يونيو 1988

دعوة لحضور مولد جد الشيخ زاهر وهو الشيخ أحمد أبو زغلل والذي تبدو صورته إلى اليمين. أما ابنه الشيخ عبد الله ، والد الشيخ زاهر فصورته إلى اليسار. قام الشيخ عبد الله بأعمال عجائبية أيضا مثل والده. وهما مدفونان في المقام نفسه في الساحة المتعلقة بالشيخ زاهر.

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين
فقد عزمت بمشيئة الله تعالى على إحياء مولد

الشيخ القطب أبوزغلل



الكائن ضريحه بكفر ابراهيم العايدي
مركز بلبيس



لحضور الذكرى العطرة والتى ستبدأ بمشيئة الله تعالى يوم الجمعة الموافق ٢ اكتوبر ١٩٨٧م ، الموافق ٩ صفر ١٤٠٨هـ
ولمدة سبعة أيام ، والليلة الختامية يوم الخميس الموافق ٨ أكتوبر ١٥ صفر

وكل عام وأنتم بخير

الداعى
زاهر عبد الله احمد أبوزغلل الرفاعى
نائب الطريقة وخليفة المولد

المولد

ذات ليلة من صيف عام 1965، وصلت إلى زاوية شارع في منطقة القاهرة القديمة لأجد نفسي أمام مشهد لم تصدقه عيناي؛ ففي منتصف شارع ضيق رأيت أربعة رجال أو خمسة يرقصون، يدورون بأجسادهم يمينا ويسارا. ثمة امرأة كانت تغني يصاحبها عازف على الناي وطبّال. يجمعهم إيقاع قوي. إيقاع مختلف تماما عن الإيقاع المألوف في الموسيقى العربية كما أعرفه. يتحلق حولهم بعض الناس، يتتبعونهم وهم يحتسون الشاي.

هكذا وجدت نفسي أتعثر في أول مولد لي وأشاهد أول حلقة ذكر أو كما يطلقون عليه في الغرب " الرقص الطقسي " ومع أن الموالد تُقام عادة إحياءً لذكرى احتفالية لولي مسلم من أولياء الله أو لقديس مسيحي، وغالبا ما يكون غير حيّ؛ إلا أن الموالد تُقام أيضا لتكريم الأحياء من الأولياء والقديسين. حدث هذا في مولد الشيخ موسى المقيم بالكرنك؛ حيث كان يُقام له مولد كبير إبان حياته في بداية شهر رجب.

تجتذب الموالد أعدادا غفيرة تقارب المليون في بعض الأحيان، لكن من الممكن أيضا أن يعيش الإنسان في مصر دون أن يشاهد مولدا واحدا؛ والسبب هو أن الموالد عادة تقام في الأحياء الشعبية أو في الساحات البعيدة عن الأمكنة المطروقة ولفترة تتراوح من أسبوع واحد إلى أسبوعين. ولكل مولد موعده الخاص به خلال السنة. ويختفي المولد بعد "الليلة الكبيرة " دون أن يترك أثرا، لكن كل من عقد العزم على متابعة الموالد، سيجد نفسه أمام آلاف الاحتفالات من مختلف الأحجام. يوجد في مصر من خمسة آلاف إلى ستة آلاف قرية، ومن النادر أن توجد قرية دون أن يكون فيها ضريح أو مقام لولي من أولياء الله. أما في المدن فيوجد أكثر من ضريح وأكثر من مقام، ومعظم هذه الأضرحة والمقامات تكون مركزا ينبثق منه المولد، لذا يمكننا أن نستنتج بثقة أنه من الصعب وجود يوم ما دون أن يُقام فيه مولد لولي مسلم، في مكان ما، في مصر.

أما الموالد المسيحية فقد خصصت لها فصلا منفصلا في هذا الكتاب.

ويمكن اعتبار المولد الإسلامي بمثابة الاحتفال المسيحي للقديسين الذي كان يُقام في أوروبا في العصور الوسطى. كانت هذه الاحتفالات تتمركز حول ضريح قديس، وتجذب الحجاج والزوار الذين تتنوع أنشطتهم بين اعتقادات دينية أو لادينية، كزيارة الضريح والمشاركة في المسيرات، والتجارة، والتسلية، وتناول الأطعمة والمشروبات والشحاذة. ولذا، لا يمكن خلق تقسيم له معنى بين العناصر الدينية وتلك اللادينية في مولد ما؛ فكل مولد يتميز بعناصر وسمات، تمزج بين العناصر جميعها. ونجد أن بعض العناصر واضحة بجلاء في مولد ما، لكنها تختفي في مولد آخر.

وبالتأكيد، وعلى وجه الخصوص نتيجة لانطلاق الموسيقى بلا ضوابط، سنجد أن الضجيج في الليل يمكن أن يصيب الإنسان بالصمم. نجد أيضا تأكيدا لهذا في الاصطلاح اللغوي الشعبي "مولد" الذي يعبر عن "الفوضى المتناهية ".

إن المحتفلين الرئيسيين في المولد الإسلامي هم من يُطلق عليهم صفة واصطلاح أهل الطريق أو المتصوفة أو الدراويش. هؤلاء يضمهم تنظيم على المستوى " القومي " يشمل ثمانى وستين طريقة، تتفرع إلى مجموعات يترأسها "خليفة "، وكل مجموعة منها تقوم بزيارة عدد من الموالد طبقا لاختياراتها، غالبا ما تكون لها علاقة بالطريقة التي يتبعونها لكن ذلك ليس بالضرورة. بعض هذه الموالد قريب من أماكن سكناهم والبعض الآخر بعيد للغاية، لكنهم حتما، هناك سوف يجدون بيتا أو مسجدا يؤون إليه أو يضربون خيامهم في مكان فسيح خال. وقد يمارسون طقوسهم في ذلك البيت أو المسجد أو الخيمة إذا ما كان هناك متسع، وإلا فإنهم يقيمونها في الشوارع أو الميدان العام، يذكرون، ويستقبلون ضيوفهم.

يسافر الشيخ زاهر (الذي سأكتب عنه في الفصل المتعلق بالمتصوفة) من بلدته الصغيرة في محافظة الشرقية مع مريديه إلى القاهرة، لكي يشارك في الموالد القاهرية الكبيرة مثل مولد الحسين ومولد السيدة زينب، كما يسافر إلى محافظة الشرقية أيضا ليشارك في مولدَى سيدي أبو مسالم وسيدي أبو خليل.

في العادة لا تقام حلقات الذكر أثناء النهار، لكن في الأغلب بعد صلاة العصر، أي حوالي الرابعة مساء، الذكر الليلي، غالبا، يخلق حالة من الإجهاد. ثمة خيام تخصص لـ " خدمة رواد المولد وضيوفه" يُقدم فيها الطعام والشاي مجانا لمن يرغب؛ فكرم الضيافة سمة واضحة عند أهل التصوف. فسعادتهم لا تنحصر في اقتسام ما يخصهم مع زملائهم فقط، بل أيضا مع الغرباء. الطعام عنصر مهم من عناصر المولد، وفي كثير من الموالد يوزع على الفقراء. توزيع الطعام والحلوى واستلامها هو نوع من التبرك. ذات مرة أثناء تلاوة القرآن في مولد السيدة زينب لاحظت ظهور رجل ومعه طبق كبير من الحلوى، مما تسبب في تشتت انتباه بعض المنصتين إلى التلاوة وأغضب البعض الآخر.

تُضاء الموالد ليلا بالمصابيح المثبتة على أقواس النصر والزينات البراقة. يقوم المنشدون باختبار مكبرات الصوت بترديد لفظة "الله" أكثر من مرة. إنهم ينوون استخدام هذه المكبرات بأقصى درجة ارتفاع صوت ممكنة في المسافات الضيقة التي تفصل بين حلقة ذكر وأخرى. للأسف فإن هذا يشوه الموسيقى التي تكون غالبا بالغة الروعة فتنبعث من المكبرات مشوهة إلى درجة لا يمكن تمييزها، ومن حسن الطالع أن هناك العديد من الشرائط الموسيقية مسجل عليها المدائح والإنشاد، متاحة للراغبين الذين يودون الاستماع إليها في هدوء. ومن حسن الحظ، نجد أن الأعداد الغفيرة من المترددين على المولد تغرق هذه النقائص في بحار من المودة والكرم يبثها أهل التصوف، ومريدوهم على من حولهم.

أعلن لي صاحب مقهى في دسوق أن الموالد قائمة على الحمص والفسيخ. ولما كانت دسوق على مقربة من ميناء رشيد فهي ممتلئة بالأسماك على أنواعها، أما الحمص فهو منتشر بكثرة في الموالد، ومن هناك خرجت المأثورة الشعبية "رجع من المولد بلا حمص ". لا تخلو الموالد من الحلويات على هيئة عروس المولد، أو أبو زيد الهلالي فوق صهوة جواده وسيفه مشرع في يده. هذه الأنواع من الحلوى ليست منتشرة في القاهرة، لكن تجدها في مولد النبي، بينما تُصنع هذه الأشكال من الخشب في الحسينية، بالقرب من باب الفتوح، ويُلبسونها ثيابا ملونة جميلة من الورق.

ثمة مظهر مهم في الموالد في الصعيد وهو المرماح أو سباق الخيل. فالخيل هنا لا تسابق بعضها بعضا، لكن كل خيّال عليه أن يظهر براعته في الفروسية في استعراض فردي، كما أن الصعيد هو المكان الرئيسي للتحطيب، تصاحبه موسيقى المزمار والطبل البلدي وأحيانا الربابة، ونجد أن هذه الفرق الموسيقية تصاحب حفلات المرماح أيضا.

التحطيب : استعراض لنزال وهمي بين رجلين. استعراض في غاية الأناقة والرقة؛ حيث لا تكاد العصا لواحد من المتحطبين، تلمس عصا الخصم أو جسده، بل تمسه مسا خفيفا، وأحيانا لا تلمسه إطلاقا. وفي القاهرة يكون من الممكن مشاهدة رجل واحد يقوم باستعراض منفرد يسمونه رقصة العصا.

ثمة عادة متبعة غالبا في الموالد المقامة للأولياء من أصحاب الطرق وهي الزفة (في الصعيد يسمونها الدارة أو اللفة) تقام باتجاه الضريح لتدور حوله، ساعتها "يُزف" شيخ السجادة أو نائبه ممتطيا حصانه أو أحيانا معتليا جملا يجلس تحت هودج من الثياب التي ستغطي الضريح بعد ذلك.

ونجد أن الزفات الكبرى التي تقام في القاهرة هي للطريقة الرفاعية وتعتبر كبرى هذه الزفات، تنطلق من مسجد السيدة زينب إلى مسجد الرفاعي يقودها نائب الطريقة، ويستقبله شيخ السجادة على مدخل مسجد الرفاعي. كذا زفة سيدي البيومي الممتلئة بألوان العمائم والرايات، خاصة أنها تنطلق من مسجد الحسين مخترقة القاهرة المملوكية، وعابرة باب الفتوح، صاعدة إلى شارع الحسينية الضيق، لتصل إلى المسجد الموجود به الضريح. خلال الزفة يصل الجمهور المتزاحم إلى حالة عالية من الوجد، لا تسمح لشيخ السجادة الذي يلتقي بالموكب في منتهاه، بالمرور إلا في صعوبة بالغة. وقد رأيته يحمي رأسه بمظلة مفتوحة تقيه المطر المنهمر عليه، من مئات قطع الحلوى التي يلقيها عليه الجمهور من الشرفات والنوافذ تحية وتبركا.

وهكذا، تنطلق المواكب في نهاية ساعة ما بعد ظهر يوم الليلة الكبيرة، تنطلق غالبا هكذا في الصعيد، أو تنطلق مباشرة بعد صلاة الظهر في اليوم التالي لليلة الكبيرة في الدلتا.

في الإسكندرية تنطلق الزفات بعد صلاة العشاء، حوالي الثامنة مساء لتبدأ بها الليلة الكبيرة. كما تُقام زفات مصغرة للصبيان بعد إجراء الطهور لهم، وأحيانا تجدهم يمتطون ظهور الخيل، كما يحدث في مولد سيدي البيومي.

ذات فجر، عقب انتهاء مراسم الليلة الكبيرة لمولد السيدة زينب، وبعد أذان الفجر، وانفضاض آخر حلقات الذكر، وجدتني أجلس في ميدان صغير أتحدث مع بعض السهارى، لتنفتح نافذة فوقنا فجأة، لتنهمر منها قطع من الحلوى تصاحبها أوراق بنكنوتية ذات فئات صغيرة، وعلى كل منها جملة مكتوبة بخط جميل " كل سنة وأنتم طيبين بمناسبة مولد السيدة الكريمة السيدة زينب 24-3-1987 "، هذه بركة ! وبعد عشرة أيام وجدت في نقودي المعدنية والبنكنوتية الصغيرة، ورقة بنكنوت بخمسة قروش مكتوبًا عليها: أول فبراير 1987 مولد السيد ضياء السيد سيف.

معظم الناس يحتفظ بهذه النقود كنوع من التبرك.

تقام الموالد في مصر على مدار العام وحتى في شهر رمضان. و في مجلة الطرق الصوفية لشهر أبريل عام 1989 "التصوف الإسلامي" نجد قائمة بما لا يقل عن ثمانية عشر مولدا تُقام في الإسكندرية خلال شهر رمضان لسنة 1409 هجرية. تنقص السنة الهجرية القمرية أحد عشر يوما عن السنة الميلادية الشمسية. لهذا تتحرك تواريخ الأحداث في الأيام القمرية إلى الخلف في كل مرة عن السنة الشمسية، لتصل إلى دائرة مكتملة بعد ثلاثة وثلاثين سنة تقريبا. لكن هذا النظام من التأريخ، لا يتعامل به الفلاحون لأنه مربك لهم. لذا احتفظوا بالتعامل بتواريخ السنة الشمسية القبطية، تحدد لهم بدقة مواسم الزرع والري والحصاد. معظم الموالد القديمة تتحدد مواعيدها، طبقا للسنة القمرية الهجرية. بينما تعتمد الموالد الحديثة على يوم بعينه من السنة الشمسية الميلادية (غير القبطية)، ونجد أن الطريقة الأحمدية وتوابعها تعتمد في مواعيد احتفالاتها على التقويم الشمسي.

على أية حال، فإن معظم الموالد ليست لها مواعيد ثابتة، وسبب هذا يكمن، غالبا، في تفضيل يوم ما من أيام الأسبوع على غيره، للاحتفال بالليلة الكبيرة، أو أحيانا لرغبة القائمين على الموالد المعتمدة على التقويم الشمسي، في تفادي تزامن احتفالاتهم مع شهر رمضان أو مولد النبي، كذا نجد أن تحديد موعد المولد يعتمد أحيانا على إمكانية الوجود فوق قطعة أرض معينة، مثل المولد الذي يقيمه الشيخ زاهر لجده مؤسس الطريقة؛ فهو يقيمه في شهر أكتوبر حيث تكون الأرض المقام عليها المولد غير

مزروعة وقتها، أو مولد أبو الحجاج في منطقة كنيسة الدهرية، يقام بعد موسم جني القطن، ويبدأ الاحتفال بالمولد الكبير للسلطان فرغل في الصعيد في مدينة أبو تيج في اليوم الأخير لانتهاء امتحانات الثانوية العامة، ويتواصل لمدة أسبوعين. وأخيرا فإن الموالد التي تقام في المناطق الصحراوية البدوية كمولد النبي صالح في سيناء تختلف مواعيدها السنوية طبقا لحركة انتقال القبائل.

هكذا تظهر صعوبة تحديد أجندة ثابتة لمواعيد الموالد، حتى بعد أن يقوم المرء بتنظيم المواعيد في التقويم القمري ويفصلها عن المواعيد في التقويم الشمسي، متتبعا تواريخها لبضع سنوات سابقة. لكن نجد دائما بضعة موالد لها مواعيد ثابتة: مثل مولد السيدة زينب التي تقام ليلته الكبيرة حتما، في يوم الثلاثاء الأخير من شهر رجب، وكذا مولد أبو الحجاج، وسيدي عبد الرحيم القناوي، في صعيد مصر. هذه جميعها ذات مواقيت ثابتة؛ هي 13 و 14 شعبان على التوالي.

ثمة موسمان في شهري أكتوبر ونوفمبر تقام فيهما الموالد، يفصل بين مولد وآخر أسبوعان وتتحرك جميعا شمالا من طنطا (السيد أحمد البدوي) إلى بسيون (مولد سيدي بسيوني) ودسوق (إبراهيم الدسوقي).

تغطي الموالد الرئيسية فترة زمنية تمتد من ربيع الأول، وربيع الثاني، وجمادى الأولى، وجمادى الثانية، ورجب، وشعبان. في هذه الفترة تقام على التوالي موالد: فاطمة النبوية، والسلطان أبو العلا، ومولد الحسين، والسيدة سكينة، والسيدة نفيسة، والسيدة رقية، وعلي زين العابدين، وأحمد الرفاعي، ومولد السيدة زينب، والإمام الشافعي، وحسن الأنور، والسيدة عيشة. هذا مع إغفال ذكر الموالد الصغيرة.

توجد في الإسكندرية خمسة موالد في خمسة أسابيع متوالية : المرسى أبو العباس، يتبعه بعد أسبوع من بدايته، مولد سيدي جابر الذي يبدأ في صباح اليوم التالي لليلة الكبيرة لأبو العباس، يتبعه مولد سيدي بشر، وسيدي كمال، وسيدي محمد الرحال. وقد ثبت إقامة هذه الموالد في شهري يوليو وأغسطس عام 1987، ونجد أن شهر شعبان وخاصة منتصفه، مكدس بالموالد للاعتقاد السائد بأن منتصف الشهر يكون مباركا لأنه يسبق شهر رمضان.

بين قنا والأقصر في الصعيد، تقام ستة موالد رئيسية في منتصف شعبان بين 13 و 15 منه حينما يكتمل القمر بدرا: مولد أبو الحجاج في الأقصر، وأبو يزيد البسطامي في الكوبانية في ضواحي أسوان، والشيخ عزب في العزب بين القرنة وقنا. ومولد عبد الرحيم القناوي في قنا، والأمير غانم في أسفون بالقرب من إسنا، وسيدي الأمير في دراو. بالإضافة إلى عدد من الموالد الصغيرة مثل سيدي علي بالقرب من أسوان. أضيف إليها مولد سيدي أبو القمصان في عام 1988 في القرنة الذي يحتفلون به يوم 29 مارس والذي صادف أنه يتوافق مع منتصف شعبان.

أُقيمت الموالد وتقام وستُقام دوما. لقد وصف ماكفيرسون(*) في عام 1940 مولد أحمد الرفاعي وهو واحد من أبرز الاحتفالات السنوية وأحد أكبر الموالد القاهرية، واعتبره موجودا بشكل قوي ومن أكبر الموالد آنذاك. ونحن نعرف أنه في عام 1880 تم وصف مولد الرفاعي باعتباره حدثا مهما مثيرا للدهشة. ولكن هذا لم ينطبق على مولد السيدة نفيسة، الذي لم يهتم ماكفيرسون بالإشارة إليه عام 1940 ونجده مولداً مهما اليوم. من ناحية أخرى اختفى عدد من الموالد الـ 126 التي ذكرهـــا ماكفيرسون.

من المحتمل أن نفسر أن العديد من الموالد التي واكبت الاحتفالات في مصر القديمة، ارتبطت بالنيل وتحولاته ومظاهر الخصب والآلهة العديدين الكبار والمحليين. ففي عصور الفراعنة كانت الاحتفالات الدينية متعددة تعدد الموالد الآن. وطبقا لوثائق تؤرخ تلك الأزمنة فقد كان هناك 162 يوما في السنة تقام فيها احتفالات مختلفة في عهد رمسيس الثالث، أما في الماضي كما في الحاضر نجد المواكب النيلية الاحتفالية تمثل عنصرا مهما في الاحتفالات. فتقوم القوارب - أحيانا - بدور مهم في

(*) كان ماكفيرسون البريطانى "البمباشى ماكفيرسون" يعمل فى وزارة الداخلية المصرية آنذاك، إبان الاحتلال البريطانى لمصر، أى "مأمور ضبط" وهو أول من كتب عن الموالد المصرية فى كتابه الشهير the moulids of Egypt وقد تمت ترجمته إلى العربية فى مشروع مكتبة الأسرة الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999 . واعتمدت هنا على هذه الترجمة التى هى ترجمة وتحقيق د. عبد الوهاب بكر حينما يصادفنى نص من كتاب ماكفيرسون بالإنجليزية فى هذه الترجمة. (المترجم)

الاحتفالات. كان لآلهة عديدين قواربهم الخاصة بهم ترسو في البحيرات المقدسة بالقرب من قدس الأقداس في معابدهم. يقوم الكهنة في احتفالات خاصة بإقلاعها للمشاركة في الموكب. ويطلق على القوارب المقدسة لقب " ذلك الذي يرتفع نحو الجمال (جمال الآلهة) " أي القارب الذي يبث الحياة الجديدة في الآلهة.

يحمل الكهنة ثلاثة قوارب يأخذونها من معبد الكرنك إلى معبد الأقصر: قارب كبير لآمون والقاربان الصغيران لـ " مت " وابنه "خوسنو "، واليوم نجد ثلاثة قوارب تستخدم في موكب أبي الحجاج الذي يقع ضريحه داخل فناء معبد الأقصر. ثمة عادة مماثلة تُتبع في مولد سيدي عبد الرحيم القناوي. هذا التشابه يغرينا - ليس دون منطق - حينما نتخيل أن التشابه القائم الآن في هذه العادات هو استمرار لعادات فرعونية، حتى لو زعم أهل الأقصر أن القوارب المشار إليها لها علاقة بإبحار ووصول أبو الحجاج من مراكش إلى مكة للحج. ولإثبات هذا الزعم على المرء أن يتأكد من وجود قوارب في المرحلة الرومانية -الإغريقية، من تاريخ مصر التي سبقت المسيحية. ففي عدد من الأضرحة نجد بضعة قوارب صغيرة معلقة هناك. وعلى الرغم مما يبدو حاليا من زوال هذه العادة؛ فإنه يمكن ملاحظة وجود بعض القوارب المشابهة، في أخميم والمحاميد بالقرب من إسنا وفي بني سويف.

إن السواري(*) والتي يتركز حولها المولد، من المفترض أن تكون لها دلالة فرعونية، فالسارية التي تحمل راية الطريقة والمرتبطة بالمقام، إما أن تكون دائمة كما هو الحال في طنطا. أو تُثبت للدلالة على مرحلة معينة تتجاوز زمن المولد نفسه. ويعتقد الكثيرون أن الأولياء يتحلقون حول الساري، لكني لم أشاهد سواري في الموالد القاهرية. لكن بالإضافة إلى طنطا فإن السواري توجد في بسيون وكفر أبو مسلّم الكوبانية بالقرب من أسوان وميت السباع وكفر إبراهيم العايدي حيث يقيم الشيخ زاهر وكان هناك سار في الأقصر لبضع سنوات خلت.

(*) السوارى أعمدة طويلة تُحمل فى الموكب وتثبت فى ساحة المولد، تحمل راية الطريقة وأحيانا اسم الشيخ أو الولى المحتفل به. (المترجم)

من المثير للاهتمام تأسيس مقارنات مع العادات الفرعونية لإقامة العمود. إنه رمز لإله الخصب "مين". ففي الاحتفالات التي لم تكن تتجاوز يوما واحدا، كان تمثال الإله يُنقل من المعبد ليُعرض بجوار العمود الرمز، ويتم ذلك احتفالا ببداية الموسم الزراعي. كانت التقاليد لا تحبذ انتقال التمثال من معبده لفترة طويلة؛ لذا كان يقام مذبح بديل، يوضع في خيمة ينتصب فيها العمود الرئيسي المُكرس للإله، وقد يحدث أن يُنصب العمود بمفرده. ونشاهد في تصوير قديم، رسم العمود وقد ثُبت فوقه راية. كما نراه الآن في السواري المعاصرة.

من المؤكد أن التقاليد الوثنية تواصلت حتى القرن العشرين(*) تجدها في الفقرة التالية من كتاب ماكفيرسون وهو يصف ما شاهده في موكب أبو هريرة في الجيزة عام 1908 في خطاب له(**):

"بعد مرور الطرق (الصوفية) بأعلامهم وموسيقاهم وأوشحتهم وشاراتهم جاء رتل لا ينتهي من العربات (عربات النقل التي تجرها الحيوانات) تحمل مجموعات من البشر ترتدي كلاً منها ملابس الحرفة التي يعملون فيها، أو بعض الملابس الملونة. وعربات أخرى يجر كل منها حصان أو حمار تحمل ثلاثين طفلا أو أكثر. هناك نساء في ملابس المهرجان الملونة. لاحظت اقتراب منصة مرفوعة على مقدمة واحدة من هذه العربات، وفي وسطها عرش. أمام العرش يقف صبي وسيم في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، عاريا تماما، إلا من تاج صغير وسترة فضفاضة تصل إلى الخصر مفتوحة ومصنوعة من القماش القرمزي المطرز بالذهب. ثمة إشارات على الأكتاف من نسيج مقصّب تمر عبره خيوط غير مرئية، كذا دوائر لامعة براقة تحيط بسرة الصبي وحلمتي الصدر. على كل من جانبي الصبي وقف وزير في عباءة رائعة مقتبسة من ملابس السيّاس، يحمل أحدها مبولة ذهبية، بينما يحمل الآخر طستا. ينحنيان احتراما بين وقت وآخر. كان الموسيقيون يضربون الطار والطبلة والدربكة من منصة

(*) وقت تأليف كتاب ماكفيرسون. (المترجم)

(**) النص العربى هنا مأخوذ من الترجمة العربية المذكورة آنفا لكتاب ماكفيرسون. (المترجم)

أقل ارتفاعا بخلفية العربة، لكن الشيء المذهل هو عضو التذكير عند الملك (الصبي) الذي أخذ يرقص مع الموسيقى في إثارة واضحة كأنه ماريونيت؛ يتحرك يمينا ويسارا وينحني إلى أسفل ثم يقفز إلى أعلى كما لو كان هناك من يحركه بزنبرك. وقفت "العربة الملكية دقيقة، أو أكثر، على بعد ياردات قليلة من حيث كنت أقف. استطعت أن أكتشف خيطا رقيقا متصلا بالجزء العلوي من هذا الماريونيت البشري المصنوع من لحم ودم، يمر الخيط من تحت الكتفين المطرزتين لينحدر من الخلف إلى الجزء السفلي من العربة، حيث كان واضحا أن لاعبا بالخيوط (كان يجلس هناك) مختفيا.

(لم أشاهد شيئا من الأحداث التالية، لكنها حسب علمي، كانت تلك المعتادة في أي مولد).

ويكمل ماكفيرسون : "على الرغم من أنني شاهدت الزفة في مناسبتين أو ثلاث مناسبات مجددا، لكني لم أشهد شيئا من طراز "العربة الملكية" في فترة قبل الحرب. لا أعلم إن كان قد تم إلغاء هذا العرض رسميا أم لا. لقد أنهت الحرب (1918- 1914) وجود هذا المولد تقريبا، على الرغم من استعادته لبعض مجده القديم في الأيام الحالية كما في حالة "سوق الثلاثاء " بالجيزة.

"ولا يستحق الذكر (أو القول) أن مولد " الشيخ أبو هريرة " لا يتبع التقويم الإسلامي (حاليا على أية حال) الذي يُتبع تقريبا في الموالد الأخرى، لكنه يُعقد في "شم النسيم" أي اليوم التالي ليوم أحد عيد الفصح الخاص بالكنائس القبطية واليونانية. أشك أن يعود تاريخ الزفة بعنصرها المتعلق بعبادة القضيب، إلى احتفالات الربيع التي كانت تقام قبل العصور الإسلامية وأيضا قبل القبطية ".

هناك عادة قديمة أيضا يمارسها بدو الصحراء؛ وضع المحمل أو الهودج أو التابوت على ظهر جمل خلال الموكب، وهو يتضمن الكسوة الجديدة التي توضع بدلا من القديمة فوق ضريح الولي، كذا قد توضع نسخة من المصحف تحت الكسوة أو قد لا يوضع أي شيء.

أحيانا نجد أن واحدا من أقارب الولي، أو من ينوب عنه، يقوم بتحية الناس المتجمعين في الموكب المتزاحمين لمسّ الكسوة للتبرك بها.

في الأقصر كانت توجد "توابيت " كثيرة ُتحمل على الأكتاف إبان موكب أبو الحجاج والأولياء الآخرين بمن فيهم الشيخ موسى المقيم في الكرنك أيام حياته. كذا تُحمل التوابيت في أبو تيج في موكب السلطان الفرغل.

أثناء المولد وكذا في أيام خاصة، يشعل الناس المصابيح والشموع في مقامات الأولياء.. أحيانا تجد من يقوم بكنس المقام وهي عادة بالغة القدم، واسعة الانتشار موجودة أيضا بين مسيحيي مصر. أحيانا يكون كنس المقام بمثابة طقس موجه ضد شخص ما رغبة في الانتقام أو الإيذاء، مثلما يتلو بعض الناس عدية يس بالمقلوب موجهة ضد أعدائهم.

قبل أن أنهي جولتي التاريخية، أود أن أشير إلى اتساع هوة الخلاف خاصة في مجالي الثقافة والتدين بين النخبة والجماهير الشعبية. هذه سمة مصرية منذ عصر الفراعنة وحتى الآن؛ لقد كان العالم الديني للنخبة الفرعونية مختلفًا تماما عن دين العامة الذين كانت لهم آلهتهم، ودياناتهم الخاصة بهم. ورغم أن الإسلام الرسمي ينفي الفوارق بين الأغنياء الفقراء، وعلى الرغم من أن التعليم الإلزامي قد محا أمية الشعب، نجد أن الجماهير المعاصرة، لا تزال تمارس تدينها المختلف عن تدين النخبة، النخبة التي تعيش في جهل مطبق متعلق بالأولياء وبعدم الاهتمام بالموالد.

سأذكر في فصل لاحق كيف تخلقت تقاليد وعادات إسلامية، متخذة من الرسول مثالا ونبراسا. إن أكثر المدافعين، حماسة، عن الموالد لا يستطيع الادعاء بأن هذه الاحتفالات كانت تقام في عهد الرسول. ويبدو كذلك أنها لم تقم إبان القرون الأولى للإسلام. جاءت بداية الاحتفال بالموالد، عند الاحتفال بذكرى مولد الرسول في 12 ربيع الأول، في القاهرة، أثناء الحقبة الفاطمية، وكذا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في أماكن أخرى متفرقة. و كانت الموالد التي تُقام آنذاك مسيحية. ما بقي لنا، من هذه الموالد الشيء الكثير.

تُعتبر الموالد بدعة في الإسلام، ويدور الجدل حول ما إذا كانت " بدعة حسنة " أو لا. ومن نافلة الذكر القول بأن الإسلاميين المتشددين يودون لو تم منع إقامة الموالد على الإطلاق. يؤيدهم في هذا الجماعات التقدمية التي تعتبر الموالد إضاعة للوقت.

في الثلاثينيات والأربعينيات اشتد عود هذا التيار في مصر ونتج عنه مضايقات متواصلة للموالد وخاصة من جهاز الشرطة المختلف دينيا. و يتضمن كتاب ماكفيرسون الذي كتبه في تلك الأيام نداءات حارة دفاعا عن الموالد.

أما في هذه الأيام ومع وجود تعاطف حديث من جهاز الدولة باتجاه أهل التصوف وطرقهم، ظهر تسامح رسمي كبير تجاه الموالد، ولم تعد الدولة تعرقل إقامة الموالد، بل اعترفت بها عن طريق إرسال ممثليها لحضور الموالد الرئيسية؛ نجد خيمة ينصبها الحزب الوطني الديموقراطي الحاكم، ومرشحو مجلس الشعب (البرلمان) الذين يقومون بزيارة الموالد كجزء من دعايتهم الانتخابية.

الموالد المسيحية

مقارنة بالموالد الإسلامية فإن الموالد المسيحية أقل ارتباطا بتواريخ ميلاد القديسين منها بتواريخ استشهادهم. إنها قليلة ومتباعدة. وفي كتاب الحجاج الأقباط في مصر، يحدد " فياود " 62 عيدا للقديسين، أغلبها أعياد صغيرة. إن القديسين المهمين الذين تقام لهم الموالد تقل أعدادهم عن الموالد نفسها؛ لأن موالد متعددة تقام لقديس واحد بعينه مثل القديس جورج(*) ، الذي يقام له مولدان كبيران واحد في شهر أغسطس (آب) في ميت دمسيس الموجودة على فرع دمياط، والثاني في شهر نوفمبر في محلة " رزق " بالقرب من أخميم بالإضافة إلى موالد صغيرة أخرى له.

إن الاحتفالات للسيدة العذراء تعقد في جبل الطير بالقرب من المنيا (أسينسيون)(**)، وفي مسطرد القريبة من القاهرة، وفي دير المحرق ودير درنكة بالقرب من أسيوط وكلها في شهر أغسطس. فالموالد المتعددة للسيدة العذراء التي تقام في أماكن مختلفة يمكنها أن تفسر لنا أسطورة هروب العائلة المقدسة من فلسطين إلى مصر. ويعتبر دير المحرق هو أقصى مكان في جنوب مصر وصلت إليه العائلة المقدسة في رحلتها هذه. فكيف يمكن إذن تفسير الاحتفالات في دير درنكة الذي يتخذ سمة تجارية والموجود بعد مدينة أسيوط إلى الجنوب، كما في "مغارة العذراء " الموجودة بالدير والتي تقام فيها احتفالات كبيرة يؤمها الحجاج في شهر أغسطس.

يعلق راهب في دير المحرق على هذا بقوله: " من أنا حتى أعرف الحقيقة ؟ لعلهم زاروا درنكة في طريق عودتهم " .

(*) هو مار جرجس. (المترجم)

(**) الاسم الفرعونى القديم للمدينة. (المترجم)

القديسة الست دميانة وعذراواتها الأربعون، وكذا القديس برسوم العريان، لكل منهما مولد كبير في شهر مايو بالقرب من المنصورة وفي شهر ديسمبر بالقرب من القاهرة.

إن التشابه بين الموالد المسيحية وتلك الإسلامية في أعداد الناس الذين يزورون الموالد، كذا في النشاطات الأخرى غير الدينية؛ تلك التجارية والمسلية. ثمة تجارة رائجة في الموالد المسيحية لكنها غائبة في الإسلامية، وهي تجارة الصور الدينية والأيقونات. فتجد الحلي الرخيصة التي عليها ميداليات للقديسين والقديسات وعلى الأخص السيدة العذراء والقديس جورج والست دميانة والبابا كيرلس السادس الذي كان معاصرا لفترة قريبة. ثمة نشاط آخر تجده في الموالد المسيحية وهو القيام بعمل الوشم. يشِم الكثير من المسيحيين علامة الصليب على الرسغ، ويمكن للزبون أن يختار ما يرغب من رموز من رسوم موضوعة خلف لوح زجاجي، قد تكون لقديس أو لأبو زيد الهلالي أو المسيح مصلوبا، أو لثعابين أو طيور، أو أن يدق اسمه وعنوانه على ساعده.

جماهير المولد المسيحي تختلف في تركيبتها عن جماهير المولد الإسلامي بسبب غيبة عنصر الطرق الصوفية الذي يجتذب جماهير عريضة، لذا تجد العائلات هي المكون الأساسي للمولد. يقضون أسبوعا أو أكثر في خيام صغيرة منصوبة يؤجرها الدير المقام فيه المولد. كما يحب المسيحيون أن يرتدوا أحسن ملابسهم وهم في المولد؛ فيرتدي الرجال بناطيل بدلا من الجلاليب، وترتدي النسوة الثياب الإفرنجية، يقوم أفراد الكشافة الفتيان بحفظ النظام. جميع هذه الأشياء تطبع المولد المسيحي بطابع برجوازي غير موجود في المولد الإسلامي. وعلى الرغم من أن المسيحيين يحق لهم شرب الخمر فإنني لم أشاهد سكارى في موالدهم.

وفي غيبة أهل التصوف، تغيب الموسيقى أيضا. فبجانب الخدمة الكنسية المنبثة بالميكروفونات الزاعقة يقوم الحجاج بترتيل تراتيل قصيرة يسمونها " قداسات" (جمع قدّاس) عند ضريح أو رفات القديس المحتفى به، هذه التراتيل تتلى باللغة القبطية وتنتهي بـ " أغيوس. أغيوس. أغيوس "، أي مقدس. مقدس. مقدس، كما تفتقر هذه الموالد إلى كرم الضيافة الذي

خبرته في الموالد الإسلامية؛ فبدلا من خيمة الخدمة، تجد مقاهي كبيرة مقامة لهذا الغرض تحمل لافتات "محبة " أو "السيدة العذراء "، ويدفع الرواد أثمان مشروبهم.

تعقد الخدمة الكنسية عادة في الصباح وفي الليلة الكبيرة. لقد شاهدت أيقونة القديس المحتفى به تُحمل في الزفة في نهاية ما بعد الظهر، تُحمل إلى الخلف حتى يستطيع الأسقف أن يواصل تبخيرها بالبخور كما في مولد الست دميانة والقديس جورج والقديس برسوم.

ويوجد في مدخل كنيسة الدير " منفذ لبيع البطاقات " حيث يدفع الناس بعض النقود ويحصلون على إيصال، هذه النقود هي وفاء للنذور التي نذروها خلال العام حينما رغبوا في النجاح أو الحب أو الكسب وغير ذلك.

في مولد القديس جورج في "رزق " يحضر الناس معهم الحيوانات التي سيذبحها متطوعون في مسلخ مخصص لذلك، ويكون من حق الدير أن يستولي على ربع كمية اللحوم، وعلى جلد الحيوان، وعلى الحوائج الداخلية للحيوان، ويتصرف فيها بالبيع، يوزع الباقي على الفقراء وعلى مالكي الذبيحة. ويغلق المسلخ في دير القديس جورج الساعة العاشرة ليلا، لكن قبل هذا بربع ساعة يهرع البعض وهم يقودون ثورا كبيرا على عجل يخترقون الجمهور المتزاحم، ولكن من المحتمل أن يبقى الثور حيا حتى يتم ذبحه في اليوم التالي.

وخلال النهار والليل لا تنقطع المسيرات الصغيرة باتجاه الدير رافعة الرايات المطرزة وغالبا ما تكون حمراء اللون أو وردية. هذه الرايات هي نذور أيضا يستخدمها الدير ستائر للضريح أو للهيكل.

في المولد الإسلامي يتم على نطاق واسع إجراء عمليات الطهور للصبية. وفي مولد القديس جورج تكون هذه العمليات عصب المولد. إنها تتم في عيادة طوارئ أقيمت بمنحة من الحكومة الهولندية. ومن الملاحظ أن عمليات الطهور في العيادات الحكومية تكون لطهور الصبية فقط، لكن الذين يقومون بهذه العملية من (المطهرين) المحترفين يقومون بختان الفتيات أيضا.

يكثر حدوث طقس التعميد (العماد) أيضا(*) ورأيت في مولد الست دميانة الخيول التي سيركبها الصبي، حينما تُقام له الزفة بعد أن أتم طقوس العماد.

على الرغم من أن سائق التاكسي الذي كنت أستقله يؤمن بكرامات القديس جورج، وأنه مدفون في "رزق " فإن الرهبان لا يزعمون وجود جسد القديس أو حتى بقاياه وآثاره عندهم، لكنهم يأملون في الحصول على بعض آثاره المحفوظة في الولايات المتحدة كما يعتقدون.

في موالد السيدة العذراء أو القديسات مثل الست دميانة، يعتقد الزوار بظهورهن ليلا في هيئة حمامات تُعرف من طريقة رفرفة الأجنحة. هذه التجليات وكل التجليات بشكل عام هي متعلقة بالديانة المسيحية فقط. المسلمون تحل عليهم الرؤى وتأتيهم الأحلام المتعلقة بأوليائهم، عدا بعض استثناءات نادرة، فإن الأولياء المسلمين لا يظهرون للجماهير أو للأشخاص كما يحدث في الموالد المسيحية، أو كما تجلت السيدة العذراء فوق برج كنيسة قاهرية في السبعينيات(**).

وعموما فإن المسلمين وكذا المسيحيين يقضون ليلتهم في وقت المولد في الأضرحة يأملون في ظهور رؤيا لهم أو علامة. كذا يكتبون في أوراق صغيرة رغباتهم ويوقعونها بأسمائهم قبل أن يشعلوا شمعة أمام الأيقونة، لهذا السبب نجد أن معظم الأيقونات تحميها طبقة عازلة من الزجاج.

(*) هو الطقس الذى يعلن فيه رسميا قبول الشخص "المتعمد" فى عضوية الكنيسة، ويحق له ممارسة الطقوس الكنسية ومنها المناولة (تناول الخبز والخمر كرمز لجسد المسيح ودمه)، وكذا طقس الاعتراف وخاصة فى الكنائس القبطية الأرثوذكسية. (المترجم)

(**) انتشرت شائعة قوية بظهور السيدة العذراء فوق برج كنيسة صغيرة فى ضاحية الزيتون القاهرية، وقد فسر البعض ظهورها برسالة دعم منها للشعب المصرى بعد هزيمة 1967 . (المترجم)

إن طرد الارواح الشريرة يقوم به كهنة متخصصون في الموالد، رغم أن هذه العملية من الممكن القيام بها في أوقات وأماكن مغايرة أيضا.

في أماكن بعينها في الموالد يُولع المسيحيون بترك تذكارات تدل على زياراتهم للمكان، ونجد في الكهف الموجود في التلال المحيطة بدير القديس أنطونيوس مجموعة من الصلبان الخشبية، قام الحجاج غالبا بعملها مستخدمين مخلفات الأخشاب بعد الانتهاء من تركيب درج خشبي يقود إلى الكهف، وعلى معظم الصلبان نجد كتابة " اذكر يا رب عبدك."

كذا فإن الحلويات المباركة في الموالد الإسلامية موجودة بوفرة أيضا في المسيحية؛ فذات مساء دخلت دير القديس برسوم العريان، وسط معركة بين المؤمنين خارج الكنيسة من أجل الحصول على الحلويات التي كان المطران يلقيها من الشرفة.

ثمة مولد يهودي وحيد في مصر هو مولد " أبو حصيرة " والذي يستمر يومين في شهر يناير في دمنهور. إنه يشبه الموالد المسيحية لغيبة الأجواء الصوفية عنه وكذا للمظهر الغربي للمحتفلين.

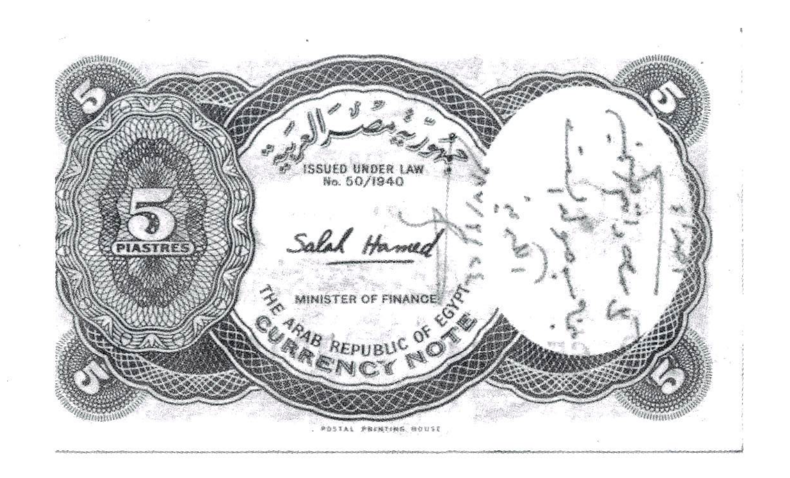
ويحيط أكثر من ألف جندي بالمنطقة لحماية بضعة آلاف قليلة من الضيوف الذين وفدوا للاحتفال بالمولد، لمنع المصريين من الاقتراب من المنطقة تحسبا لوجود " إرهابيين" بينهم. هذه الإجراءات تحد من إمكانية تطور المولد إلى الاحتفال الذي كان سابقا.

يُقام مزاد على مفتاح باب الضريح في كل مولد، ويباع بشكل رمزي ببضعة آلاف من الدولارات في بداية الليلة الأولى. تستخدم النقود لرعاية الضريح والحفاظ على المكان. يأتي الزوار عادة من إسرائيل والقليل من المغرب ويوقدون الشموع بالقرب من القبر لكي ينالوا البركة - وهي عادة لاحظتها تطبق في ضريح ابن عربي في دمشق - كما يذبحون الأضاحي التي يوزعون لحومها على أنفسهم، وتراهم يجلبون معهم أقاربهم المرضى ويطلبون وساطة الولي لينالوا الشفاء. يتناول الزوار كميات كبيرة من الأطعمة والمشروبات الروحية ويغنّون ويشيعون جوا من الحبور والمرح في الخيام المنصوبة جوار الضريح.

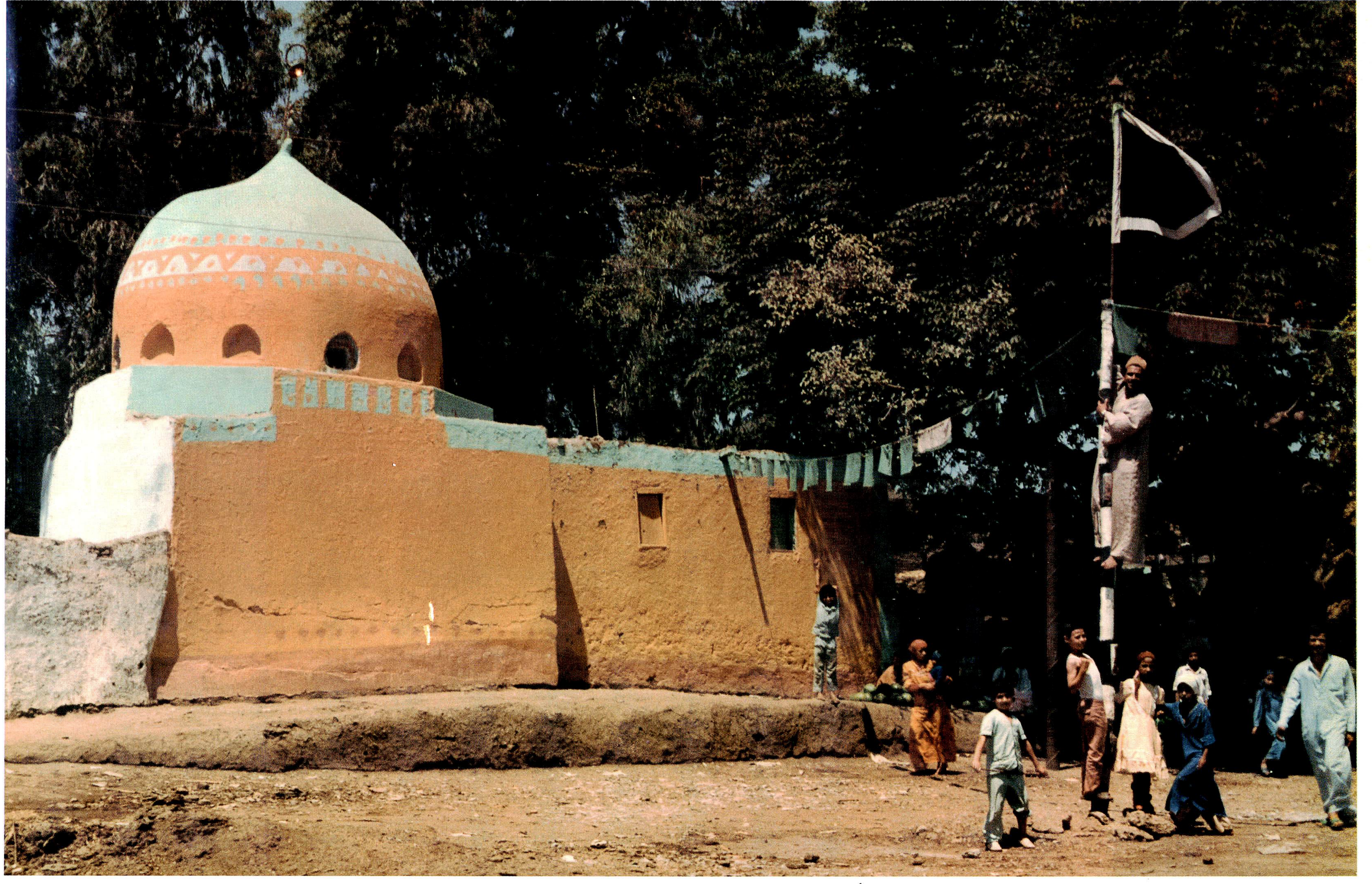
وعلى الرغم من قول صحف المعارضة المصرية المعادية لإسرائيل بأن أهالي المنطقة يعانون من هذا المولد اليهودي، فإن انطباعي أن معظمهم يتحلون بروح التسامح. وهكذا في حالة كهذه وحالات مماثلة أخرى، فإن روح التسامح المصرية التي يضرب بها المثل لا تزال هي السائدة(*).

(*) أهالى المنطقة يعتقدون أن الشيخ أبو حصيرة ولى مسلم، ومن هنا جاء تذمر الأهالى. (المترجم)





أوراق بنكنوت فئة خمسة قروش من مولدي ضياء السيد سيف، والسيدة زينب .



ساري في ميت أبو السباع وعليه راية الطريقة الرفاعية التي ينتمي إليها خادم المقام. يُنصب الساري في مولد محمد العراقي الذي يوجد ضريحه في خلفية الصورة. ويبقى الساري مكانه حوالي ثلاثة أشهر حتى مولد النبي.

أما شجرة الجميز العجوز بالقرب من الضريح التي تصدر أصواتا كالأنين فهي شجرة مقدسة. حينما يُقطع فرع من فروعها فالشجرة تئن بصوت باك . ويقال إنه يعيش تحتها ولي من أولياء الله، بدون ذراعين أو ساقين، وجذع الشجرة ممتلئ بالمسامير التي دقها فيه الزوار. وعلى شجرة أصغر بالقرب من السور يترك المرضى الذين يرغبون في الشفاء بعضا من ثيابهم على الشجرة .



راقصون محترفون من عائلة / جماعة المهدي يرقصون رقصة التنورة في مولد السيدة زينب . ويمكن الاتفاق مع هؤلاء الراقصين أو مع زملائهم من عائلة / جماعة أبو الغيط للقيام برقصاتهم نظير أجر في الأفراح وحفلات الطهور . بعض جماعة أبو الغيط يقومون أيضا بإحياء حفلات الزار.



رجل يقوم بإطلاق البخور في خيمة من خيام مريدي الشيخ زاهر في مسجد سرقتمش بمناسبة مولد السيدة زينب . لقد أقحم الرجل نفسه بغير دعوة وسرعان ما طردوه .

التاريخ 8-3-1988م / 30-7-1408هـ



حلاق يقوم بوضع اللمسات الأخيرة على ذقن زبونه في مولد أبو مسلم . بعض الحلاقين يصبحون من الموالدية ، ينتقلون من مولد لآخر.
التاريخ 19 -7- 1987م / 22-11-1407هـ



امرأة تقوم بتقديم الشاي في مولد بمقابر الخانكة شمالي القاهرة.



إجراء الطهور أثناء المولد بواسطة المطاهر الذي غالبا ما يكون حلاقا. في الصورة يظهر دكان الحلاق بالقرب من مسجد في القاهرة وقد وضع لافتة تعلن اجراء الطهور إبان المولد .

التاريخ 6-12-1887م / 14- 4-1408هـ



التـجـارة خلال المـوالـد في أي شـيء: حـديـد، بلاستك، سكر، المونيوم، سيراميك، لعب أطفال وأدوات منـزليـة وحمص، حلويات وروائح وعطور وبـخـور وقـبـعـات ورقـيـة وعـرائس من الـسـكـر وفسيخ. نرى هنا امرأة تبيع دمى بلاستيكية في مـولـد سيـدي أحـمـد الـرفـاعي بالـقـاهـرة بـجـوار خيمة تتبع الطريقة الرفاعية الذين علقوا صورة لشيخهم.

التاريخ 12-3-1987م / 11-7-1407هـ



بائع حلويات في مولد سيدي أحمد الرفاعي



سيدة تشاهد مولد سيدي أبو الحجاج في الأقصر



امرأة ترقص في مولد سيدنا الحسين بالقاهرة على الموسيقى التي عادة ما تُعزف في رقصة التحطيب. لقد دفعت نقودا للفرقة الموسيقية مثلها مثل الآخرين حتى يعزفوا لها لمدة خمس دقائق، ويُسمح للذين يرغبون في مشاهدة التحطيب أن يدخلوا الخيمة بشرط أن يدفعوا خمسين قرشا ثمن الشاي الذي سيشربونه بعكس أولئك الذين سيقفون بالخارج فإنهم يدفعون خمسة عشر قرشا فقط .



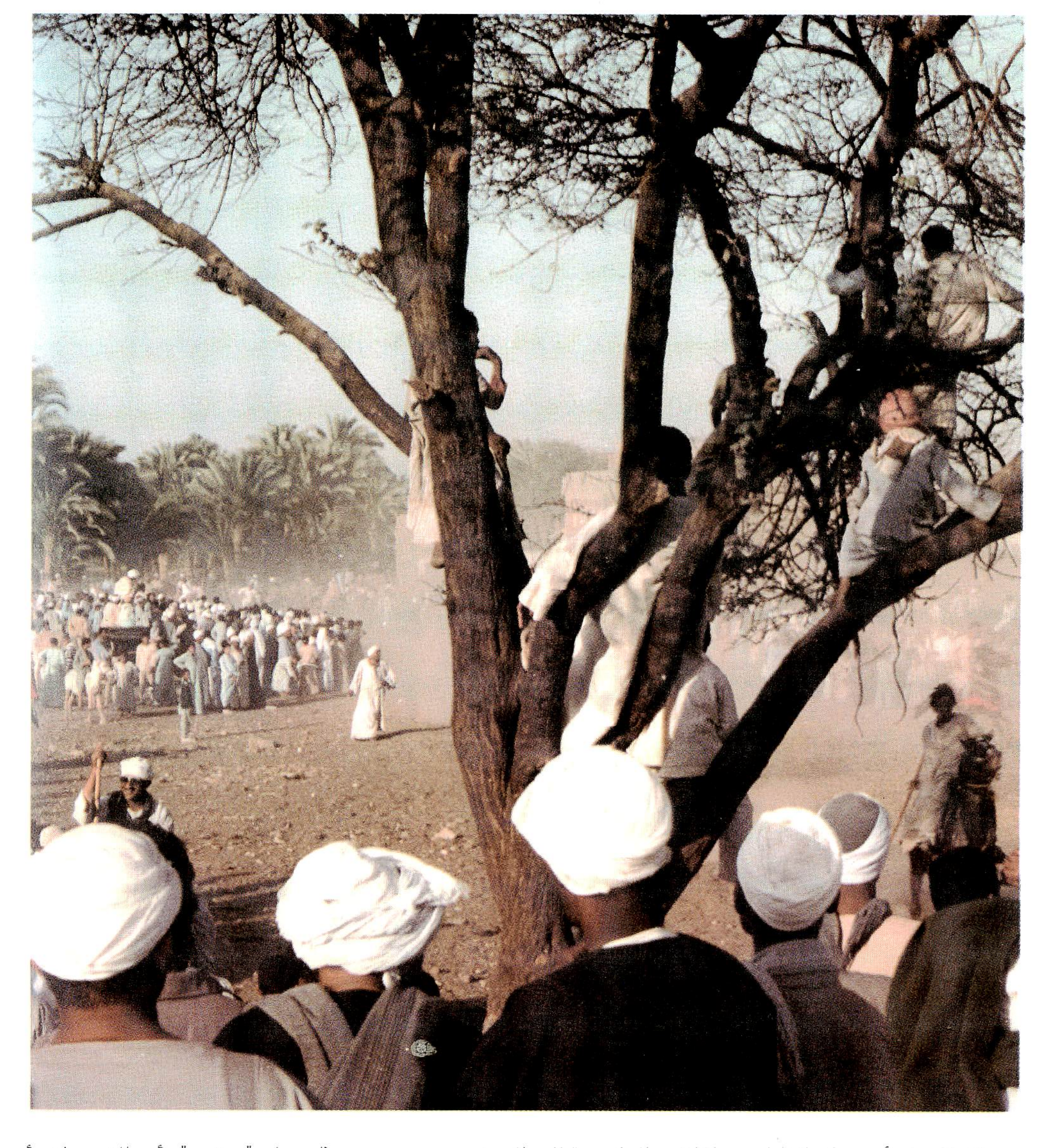
إن رقصة التحطيب هي رقصة شعبية تمثل القتال بين شخصين والتي لا يخلو منها أي مولد في صعيد مصر . القتال هنا يأخذ شكل حركات راقصة تعتمد على موسيقى المزمار والطبلة.

يبدأ التحطيب في مولد أبو القمصان غالبا بعد الظهر وينتهي مع غروب الشمس . الرجلان في الصورة كانا من بين الذين قاموا بالتحطيب .

التاريخ 29-3- 1988م



لوحة تصور التحطيب مرسومة على كشك لألعاب النيشان في مولد أبى الحجاج بالأقصر.



سباق المرماح أو سباق الخيل من الملامح الرئيسية للموالد في صعيد مصر مثل مولد " عزب " وأبو القمصان وأبو الحجاج. هنا لا تسابق الخيول بعضها بعضا لكن الفرسان هم الذين يتبارون في إظهار براعتهم في الفروسية؛ حيث ينطلقون بسرعة ليتوقفوا فجأة في نهاية الخط. وكما في أبي الحجاج في الأقصر وكذا في أماكن أخرى يوجد عدد كبير من المشاهدين الخبراء بصحبة أولادهم. يستمر المرماح من فترة ما بعد الظهر وحتى غروب الشمس.

التاريخ 11-4-1987م / 11-8-1407 هـ

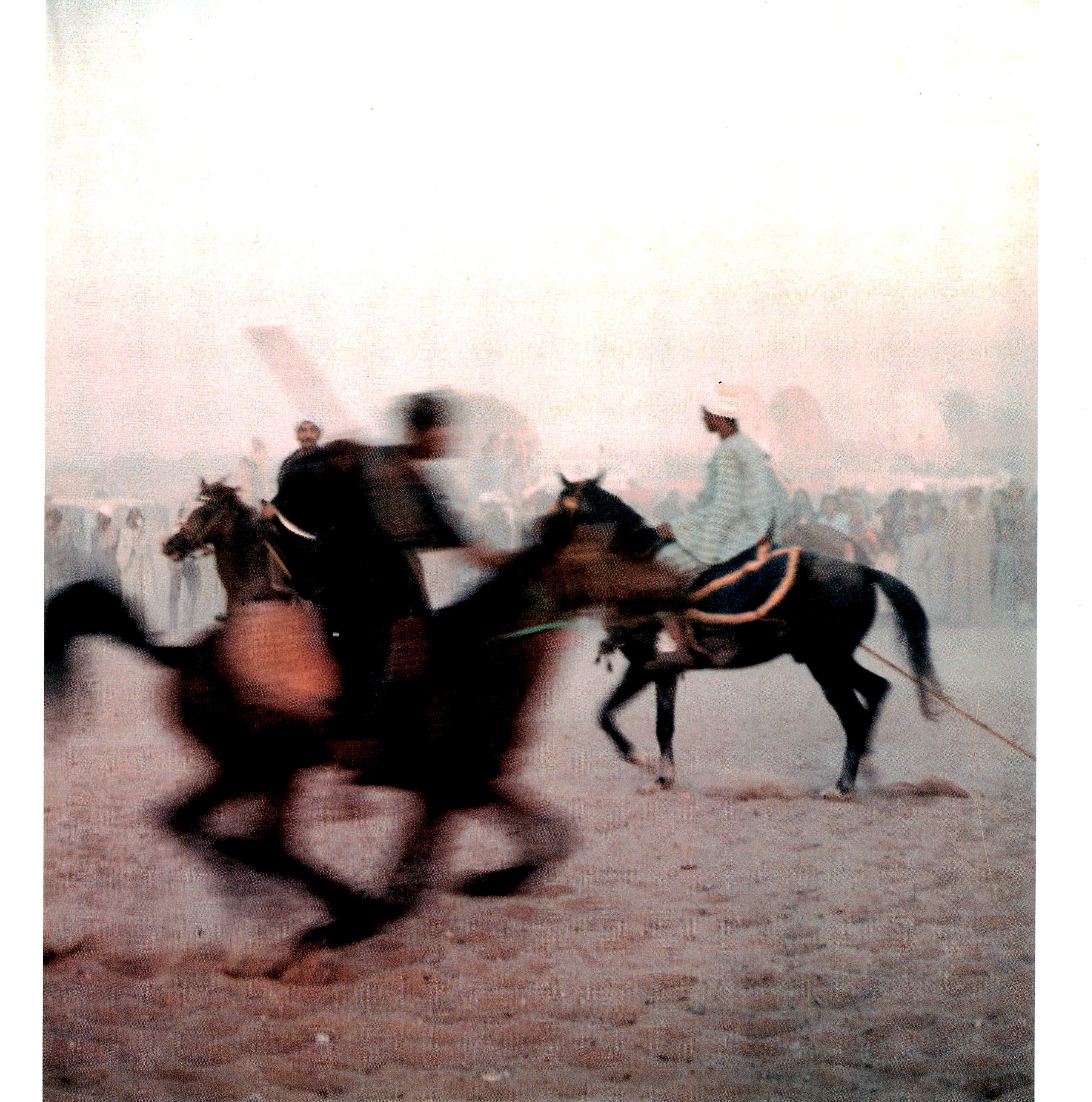
عازف الربابة في مولد أبي الحسن الشاذلي

التاريخ 3-8-1987م / 7-12-1407هـ



مرماح في مولد أبو القمصاَن بالقرنة.

التاريخ 29-3-1988م



مرماح في مولد شيخ العزب في محلة العزب
شمالي القرنة.
التاريخ 12-4-1987م / 11-12-1407هـ



موالدية يرتاحون بالقرب من لوحة النيشان في مولد السيدة نفيسة، ينتظرون حلول الليل حتى يبدءوا عملهم.

التاريخ 1-2-1987م / 1 -6-1407هـ



لوحة للتنشين في مولد سيديَ السلطان أبو العلا في القاهرة

التاريخ 6-12-1987م / 1-6-1407هـ



عمل برانيط ورقية للموالد المحلية في سوق السلاح بالقاهرة .

زفة سيدي البيومي، في الجو المحيط بالموكب تشابه كبير من موكب سانت نيكولاس وهو يدخل أمستردام، ومع الاختلاف فإن زفة البيومي حقيقية(*) وواقعية؛ ففي وسط جمهور احتفالي في شارع الحسينية الشعبي المنحدر شمالا من باب الفتوح يشكل أفراد الطريقة البيومية مع مشايخهم موكبا كبيرا ممتدا وفي المقدمة الشيخ حامد البيومي شيخ السجادة البيومية. تنطلق الزفة في مساء الليلة الكبيرة لمولد سيدي علي البيومي الذي أسس فرعا مستقلا للأحمدية حوالي عام 1700 ميلادية . ينطلق الموكب من منطقة الحسين مخترقا المدينة القديمة حتى ضريح سيدي علي في الحسينية. يلقي الناس بالحلويات تحية وتبركا من الشرفات على الموكب. يحتمي الشيخ حامد من الحلويات بمظلة مفتوحة، وقبيل النهاية تتزايد صعوبة حركة الشيخ ويبدو ضِيقه من الزحام الكثيف.



(*) موكب سانت نيكولاس فى دخوله أمستردام هو تمثيلية سنوية تعبر عن وصول سان كلاوس الأسطورى من إسبانيا إلى أمستردام حاملا هدايا عيده وهو يركب جوادا أبيض ويحيط به خدامه وحراسه. (المترجم)



جماهير غفيرة في منطقة الحسين في ظهيرة مولد "سيدنا الحسين"، ونرى بعض رايات الطريقة الرفاعية يدور بها المريدون حول الميدان، أما على اليسار من واجهة المسجد حيث يقال إن رأس الحسين محفوظة هناك في الضريح، تقوم بعض الطرق الصوفية الرئيسية، وكذا أفراد المشيخة العامة للطرق الصوفية وطائفة الأشراف، بنصب خيامهم (في الجانب الآخر من الميدان نصب أحباب الشيخ موسى خيمتهم ومعهم أحباب الشيخ أبو الحجاج الذين قدموا من الأقصر) .



موكب زفة مولد الرفاعي أسفل كوبرى أبو العلا في القاهرة . كان المنشد خلال تلاوته الإنشاد المعتاد يخرج عن النص ويمدح وزير الداخلية في ذلك الوقت زكي بدر قائلا: " ربنا يخليك ليا يا وزير الداخلية"، الذي كان شوكة موجها

ضد الأصوليين الإسلاميين "

التاريخ : 10-12-1987م 18- 4-1408هـ.



صعيد مصر. مدينة أصفون شمالي إسنا، حيث الدورة أو اللفة لجمل فوق ظهره كسوة " المحمل " وهي الثياب الجديدة التي سيغطى بها الضريح. وفي المحمل يجلس " النقيب " وهو من أفراد العائلة التي تخدم الضريح.

ويقال إن الأمير غانم كان يدعى "غالي" من قبل. وهو اسم يحمل دلالة مسيحية وفرعونية أيضا. ويقال إنه أعلن إسلامه بعد غزو مصر عربيا وغالبا إبان التمرد(*)، ويعتبر مولد الأمير غانم هو الأكبر في محافظة قنا بعد مولد سيدي عبد الرحيم القناوي ومولد أبو الحجاج في الأقصر. هذه الموالد جميعها تعقد في منتصف شهر شعبان قبيل شهر رمضان ، ويقول بعض الفلاحين إنهم يشاهدون الأمير غانم ممتطيا صهوة جواد أبيض وسيفه مسلول في يده، وذلك قبل شروق الشمس. أما أفراد الشرطة في الصورة الذين يحملون العصي فهم مخصصون لحماية المولد من الأصوليين المعادين لأهل الطرق الصوفية.

التاريخ 1-4-1988م / 15-8-1408هـ.

(*) حدث أكثر من تمرد وثورة إبان العصور الأولى من الحكم الإسلامى لمصر وأشهرها تمرد منطقة البشمور المسيحية. (المترجم)





نسوة نوبيات أثناء " الطوفة " في اليوم الذي يلي الليلة الكبيرة لمولد سيدي أبو زيد البسطامي في محلة الكوبانية جنوب أسوان . يقّدم النوبيون مشيا منذ الصباح الباكر من قراهم في "غرب أسوان " ويدورون سبع مرات حول الضريح . بعد ذلك تُعطى الإشارة لراكبي الجمال ؛ فيركضون حول المقام سبع مرات أيضا . وبعد الظهر يقوم الصبيان والفتيان بالطواف حول الضريح وهم فوق ظهور الحمير كما يفعل ذلك شيخ في محمل فوق ظهر جمل ، يتبعه جمل آخر يحمل طبلتين من النحاس (*) يدق عليها طبال متخصص يخترق القرية بجمله ثم يدور به حول الضريح سبع مرات.

(*) الطبلة المصنوعة من النحاس تستخدم فى مناطق غرب السودان وشرقه – أحيانا – إبان الاحتفالات الدينية أو الخاصة بتجمع القبائل. (المترجم)

لقد رُويت حكايات متعددة متعلقة بأبي زيد البسطامي والذي يتطابق اسمه مع المتصوف الفارسي الكبير إبان المرحلة الكلاسيكية. لكنهم هنا يزعمون أنه من أصول مغربية من قرية تدعى " بسطام " والحكاية تقول إن أبا زيد وعد والدته أنه لن يكذب إطلاقا، لذا أعلن عن المكان الذي خبأ فيه نقوده حينما التقى بعصابة من قطّاع الطرق. تأثر اللصوص كثيرا وأعلنوا إيمانهم بالإسلام. ثمة قصة أخرى عن تحويل ألف راهب مسيحي إلى الدين الإسلامي. والحكاية تقول إن أبا زيد البسطامي دخل دير سمعان الموجود غرب أسوان. دخل متخفيا لكن رئيس الرهبان اشتم رائحة " لشخص غريب وتحداه أن يجيب عن تسعة وتسعين سؤالا ؛ فإن عجز فإنه يقبل أن يتحول إلى الدين المسيحي، وإذ لم يستطع الرهبان إجابة التسعة والتسعين سؤالا التي سيسألهم بها أبو زيد فإنهم يتحولون إلى الإسلام. وغني عن القول إن أبا زيد أجاب عن التسعة والتسعين سؤالا إجابات صحيحة وكان بينها سؤال " من الذي مشى وهو في قبره ؟ " وكانت الإجابة هي " يونان "(*) وسألهم أبو زيد سؤالا واحدا " ما الكتابة الموجودة على باب الجنة ؟" وكان هذا سؤالا ذكيا، لأن رئيس الرهبان كان يعرف الإجابة وهي " لا إله إلا الله محمد رسول الله " وأجاب رئيس الرهبان بالإجابة الصحيحة وتحول الرهبان جميعهم إلى الإسلام. وعمل أبو زيد أعجوبة وهي إعطاؤهم جميعا ألف "عمة "كغطاء للرأس.

لم يتحول كل مسيحيي غرب أسوان إلى الإسلام، وأراد واحد منهم أن يقتل أبا زيد. لكنه كان أعمى فسأل ابنته أن تساعده أن يحسن التصويب عليه أثناء قيامه بالصلاة فأصابه في أعضائه التناسلية. مشى أبو زيد حتى وصل إلى الكوبانية حيث قضى نحبه. قام الأهالي بدفنه في جزيرة في النيل، ولكن الولي رفض أن يُدفن هناك لأن الجزيرة كانت أحيانا تغطيها مياه الفيضان. وحينما كادوا أن يواروه الثرى سمع الأهالي تصفيقا في السماء و تطلعوا إلى أعلى وحينما ارتدوا بأبصارهم على الأرض كان الجثمان قد اختفى.

بعد قرون كثيرة ظهر أبو زيد في منام لأحد الناس وأخبره أين يجد رفاته. وهكذا نبش الناس الأرض وعثروا على الرفات وبنوا له مقاما فوقها.

أبو زيد هو واحد من كبار الأولياء وأثار غيرة بعض الأولياء الآخرين الذين تحدوه أن يباريهم في كراماتهم، كانت واحدة من التحديات أن يصلي لمدة عام كامل. قال الرواة : " أعلن الملاك جبريل فوز أبي زيد في التحدي "

التاريخ 14-4-1988م / 14-8-1408هـ

(*) هى قصة توراتية عن نبى اسمه "يونان" عصى الرب فألقى به فى بطن حوت وعاش هناك ثلاثة أيام حتى أخرجه الرب من بطن الحوت. القصة موجودة فى "سفر يونان" بالعهد القديم – الكتاب المقدس – القصة نفسها موجودة في القرآن الكريم، والنبي "يونان" يعرف لدى المسلمين باسم "يونس". (المترجم)



بينما كنت أزور ضريح الشيخ نور في الخانكة شمالي القاهرة، وهو واحد من الأولياء الكثيرين الحديثين، رأيتُ هذا الموالدي وقد استعد بأدواته لاستقبال الليلة الكبيرة في اليوم التالي، وقد ظهرت كتابات وأدعية دينية تحيط برسمة ميكي ماوس .

التاريخ 4-8-1987م / 9-8-1407هـ



السيدة المعلقة في الهواء يظهر "المنوم المغناطيسي " عاصم المهدي براعته في مولد الإمام الشافعي بالقاهرة . كانت السيدة ملفوفة في ملاءة ومستلقية فوق أريكة صغيرة حينما قام عصام برفعها قليلا في الفضاء تم سحب الأريكة جانبا
حالما تثبتت في الفضاء؛ فإن عصام يتركها ويخاطب الجمهور ويحرك الدائرة البلاستيكية الحمراء أسفل السيدة لكي يبرهن على عدم وجود ما يثبتها به في الفضاء. قال عصام إنه بإمكانه رفعها عاليا على نفس الارتفاع الذي يرفع ب
يديه، وإن الملاءة تقدم بعض الحماية إذا ما اختل التوازن. وإذا ما حدث هذا فإن أقصى ما يحدث لها كأنها تسقط من فراشها وأنه باستطاعته إذا ما كانت محظوظة أن يتلقفها في الوقت المناسب.

سألته إذا كان باستطاعته أن يثبتني أو يطيرني في الهواء فأجاب أنه باستطاعته أن يجعل أي شخص يطير أو يتثبت في الهواء، لكن لكي يطيرني فإنه يحتاج إلى ثلاثة أشهر للتحضير لذلك.

لكن بعدما استطعت أن أنتزعه من عصام المهدي. لكن بعد سنة و في شهر رمضان وفى أثناء احتفال كبير أقيم بجوار مسجد سيدنا الحسين ، قام بغدادي وهو زميل عصام بشرح مسهب حول عملية التثبيت الهوائي. فالسيدة تستلق
فوق سرير معدني موصل بسلك ينتهي برافعة موجودة في الكواليس والتوصيلات مخبأة جيدًا خلف الستائر بحيث تستحيل رؤيتها.

التاريخ 22-3-1987م / 21-7-1407هـ



ولد طائر أثناء مولد السيد البدوي في طنطا.

التاريخ 21-10-1987م



هذه الخيمة الضخمة نصبتها الطريقة الرفاعية وتؤجرها للزوار في أثناء مولد سيدي أحمد الرفاعي.

التاريخ 25 -2-1988م 7-7-1407هـ



في الفجر في مولد سيدي زين العابدين في واحدة من مقابر القاهرة . أفراد الطريقة الخلوتية وقد حضروا من المنزلة وأقاموا خيمة فوق مقبرة. ويمكن قراءة الكتابة الموجودة على المقبرة " مقبرة عائلة العاصمي بزين العابدين " وهم يقدمون أكواب الشاي للعابرين صدقة على أرواح موتاهم.

التاريخ 13-12-1988م 24-6-1408هـ



أفراد الطريقة الرفاعية، في مولد زين العابدين استولوا على مقبرة في المقابر التي تحيط بمسجد زين العابدين. ومن جهاز التسجيل يُسمع صوت إنشاد ديني .

التاريخ 16-12-1987م 16-6-1407هـ

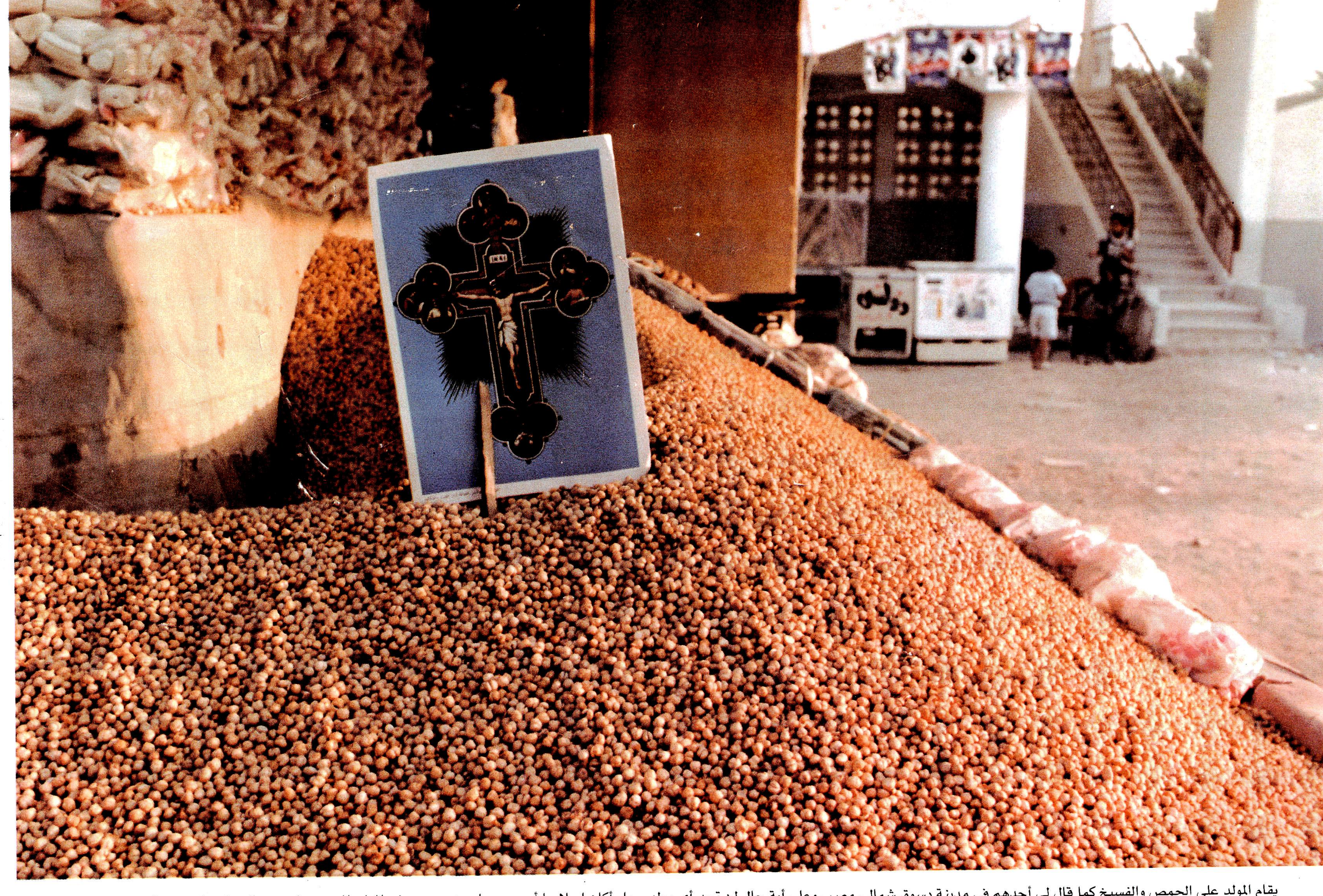


خيام أهل الطرق الصوفية في طنطا أثناء الأيام الأولى لمولد سيدي أحمد البدوي، وتجد أفراد الطرق الصوفية المختلفة ينصبون خيامهم حول الساري المقام في الميدان المفتوح بجوار الضريح. ترفع الأعلام خلال سير المواكب في النهار وكذا لتزيين الخيام. الأعلام الحمراء هي للطريقة البيومية والسوداء للرفاعية.



أطفال يلعبون أسفل الراية الخاصة بالطريقة الأحمدية في مولد أبو العباس بالإسكندرية.

التاريخ 23-7-1987م 26-11-1407هـ



يقام المولد على الحمص والفسيخ كما قال لي أحدهم في مدينة دسوق شمالي مصر. وعلى أية حال لن تجد أي مولد سواء أكان إسلاميا أم مسيحيا دون حمص، في المولد المسيحي لبرسوم العريان على مقربة من القاهرة نرى بائعا للحمص يؤكد هويته الدينية بغرز صليب كبير فوق تلال الحمص.

التاريخ 16 - 9 - 1978م



زوار لمولد أبي الحسن الشاذلي في وادي حميصرة. إن أقرب بلد لمولد أبي الحسن الشاذلي في وادي حُميصرة هي قرية " مرسى علم " على البحر الأحمر، وتبعد حوالي 150 كيلومترًا. لكن معظم الزوار قدموا من وادي النيل بين أسوان وقنا وهي مسافة تتراوح بين 300 و 400 كيلومتر.

إن منطقة العبابدة بين مرسى علم وبرناس توقف جميع نشاطاتها أثناء المولد.

بعض رواد المولد طلوا بالعلامات الحمراء اللون، جوانب السيارة. إنه دم الأغنام التي ذُبحت كأضاحي. فهم يعتقدون أن هذه العلامات تحميهم من الحسد.

التاريخ 3-8-1987م / 7-12-1407هـ



عائلات مسيحية مخيمة في مولد ست دميانة. يأتي المسيحيون إلى المولد بعائلاتهم وليس كما يفعل المسلمون من أفراد الطرق الصوفية الذين يقدمون مع جماعات من مناطق سكناهم. تؤجر الخيام من الدير.
التاريخ 15 -9-1987م



أيقونة الست دميانة يغطيها بخور المباخر فى أثناء موكب حمل الأيقونة في مولدها.

التاريخ 19-5-1987م



محاولة لمس الصليب أثناء موكب مولد الست دميانة في منطقة الدلتا.

اشتهر مولد الست دميانة في رواية لورانس داريل " رباعية الإسكندرية " حيث وصفه بأنه حدث كبير وغير مألوف، يضج بالموسيقى والزوار. ولعل المؤلف استخدم مخيلته في الوصف بحرية وهو يعيد وصف مولد لسيدي أحمد الرفاعي كان ماكفيرسون قد وصفه في كتابه " الموالد المصرية " لأن مولد الست دميانة هو واحد من أكثر الموالد المسيحية محافظة على التقاليد والآداب العامة باعتباره مزارا للعائلات بدون التزيد. يظهر وشم الصليب على رسغ الصبية في هذه الصورة.

التاريخ 19-5-1987م



موالدية مسيحيين مع أدواتهم في شارع من شوارع "جبل الطير "حيث يقال إن العائلة المقدسة قد أقامت ردحا من الزمن هناك أثناء وجودها في مصر . شيدت الإمبراطورة هيلانا في القرن الرابع كنيسة في المكان المفترض لإقامة العائلة المقدسة. يقام المولد مباشرة قبيل "صعود المسيح إلى السماء بعد قيامته " ووسط هذه الصحراء تظهر سوق كبيرة مصاحبة للمولد.

التاريخ 28-5-1987م



أعمال الوشم وهو من الأنشطة المنتشرة والتي لم أشاهدها سوى في الموالد المسيحية. وفي الأغلب أن صناع الوشم هم من المسلمين. هذه مهنة تتوارثها العائلات.

يشِم العديد من المسيحيين صليبا صغيرا على رسغهم. ثمة أشكال عديدة ومتنوعة للوشم مثل مار جرجس والسيدة العذراء والمسيح، وكذا شخصيات من السيرة الشعبية " أبو زيد الهلالي" وأشكال حيوانات وعصافير.



رسم للسيدة العذراء معلق على أرجوحة في مولد برسوم العريان جنوبي القاهرة.
التاريخ 26-9-1987م



تشكل الأنشطة الترفيهية التجارية عنصرا اساسيا في كل مولد: المراجيح الملونة، ولوحات النيشان وغيرها، ينقلها الموالدية من مولد لآخر. وهذا الجهاز صوَّرته في مولد مسيحي في جبل الطير ليس بعيدا عن المنيا في صعيد مصر ومكتوب عليه "يا أم المخلّص ياعدرا" على الجانبين: "ما شاء الله " الله أكبر " كذا أسماء دول عربية.

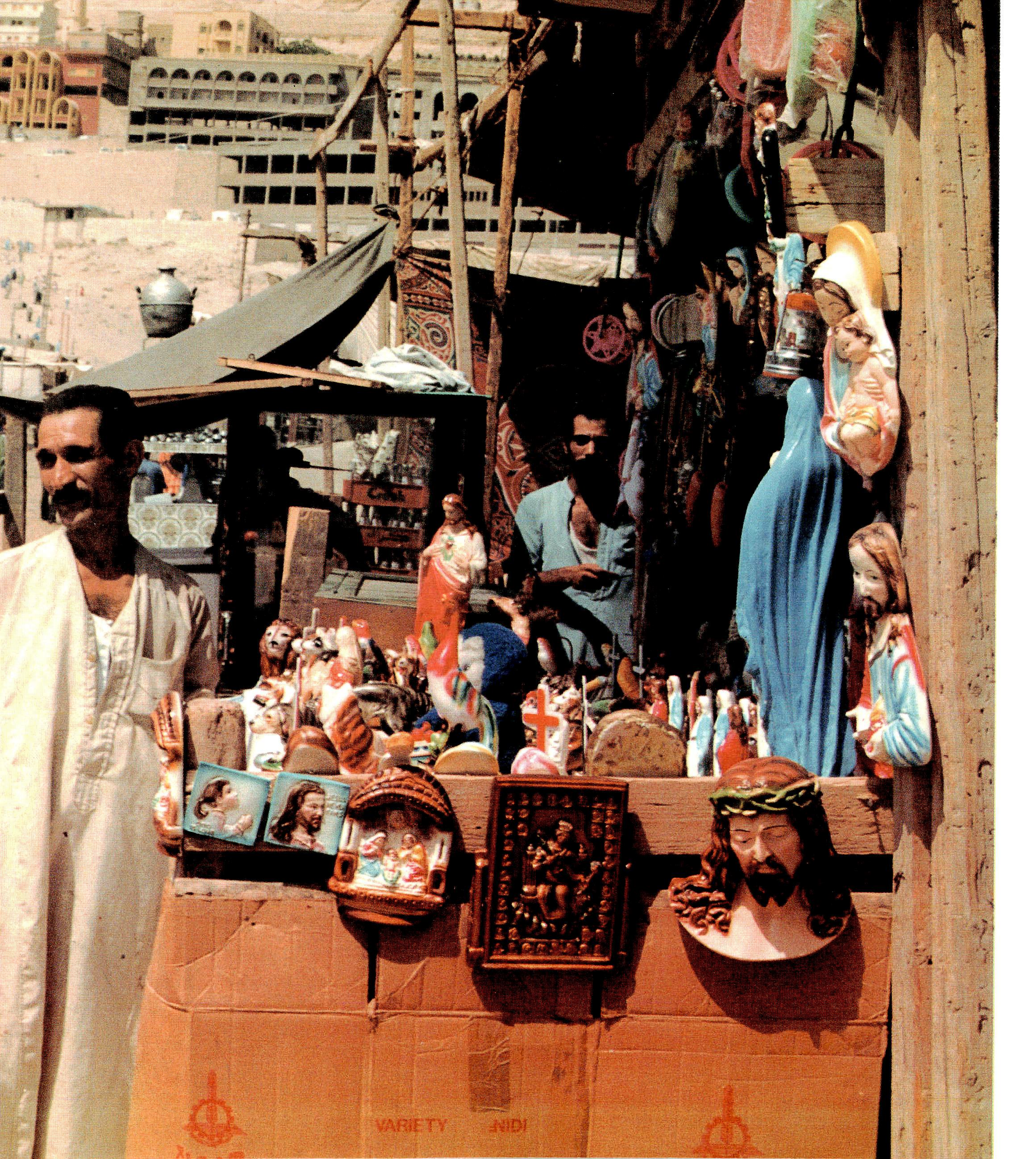
التاريخ 28-5-1987م



جبل الطير حيث انتهى المولد وانفض السوق.



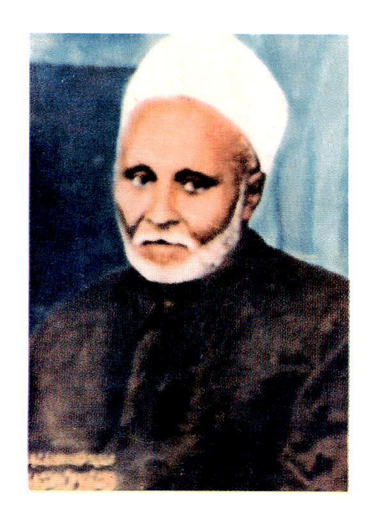
في مولد أبي حصيرة وهو المولد اليهودي الوحيد في مصر يتم ذبح خروف كأضحية .
تم إعادة إحياء المولد بعد إقامة العلاقات الدبلوماسية بين مصر وإسرائيل. ويزوره فقط الحجاج اليهود من المغرب وفرنسا وإسرائيل وبعض من بقي من اليهود في مصر.
التاريخ 9-1-1988م

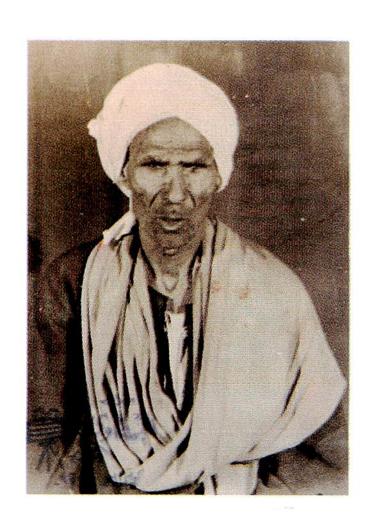


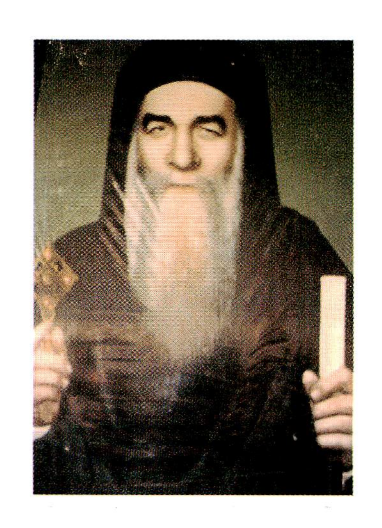
هدايا معروضة للبيع في مولد مسيحي في دير درنكة.

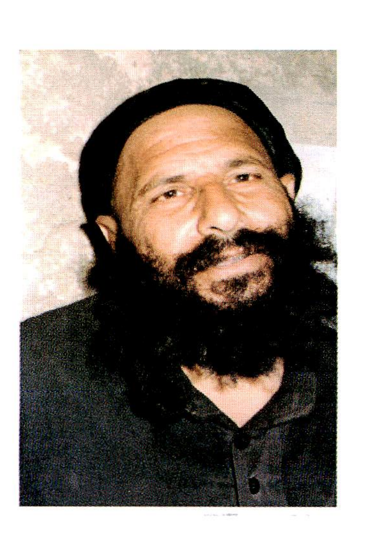
إن دير درنكة مجهز بتسهيلات للزوار، يطل على مدينة أسيوط من منظر رائع.

التاريخ أغسطس 1987









أولياء وقديسون من القرن العشرين.

من اليسار إلى اليمين الشيخ أحمد رضوان، والشيخ أبو القمصان، والبابا كيرلس السادس، والراهب فانوس.

الأولياء والقديسون

إن ظاهرة "الشخص المقدس " الذي يمتلك معرفة وثيقة من نوع خاص بالله، كما يستطيع أن يقوم بالوساطة بين الناس وبين الله - خاصة بعد وفاته - هذه الظاهرة تتشارك فيها بعض الأديان؛ ففي المسيحية تحوز الكنيستان الكاثوليكية الرومانية والأرثوذكسية أعدادا كبيرة من القديسين، مُعترف بهم من السلطات الكنسية العليا على أسس وقواعد متفق عليها. لا تعترف طائفة البروتستنت بالقديسين ولا بوساطتهم وتؤمن بالاتصال المباشر بالله.

في هذا الصدد فإن الإسلام الأصولي يشابه البروتستنتية(*)، فمن خلال الرسالة التي قدمها الرسول ومن اتباع قواعد السنة، يكون المؤمن قد تسلم بالفعل مجموعة من القواعد لكي يتدارسها ويتبعها. وبالتالي ليست هناك ضرورة، بل ليست هناك إمكانية للتوسط بين الله والبشر. كل ما هو مطلوب من الإنسان أن يتبع القوانين المقدسة أو ما يُطلق عليه اصطلاح " الشريعة " وأن يقيم الصلاة لكن دون انتظار استجابة سماوية. كذا فلا يتوقع مكافأة خاصة هنا في هذا العالم. على المرء أن يتدارس القواعد وأن يتبعها بقدر استطاعته، وينتظر الثواب في العالم الآخر.

على المستوى الشعبي، فإن المسافة بين الله سبحانه وتعالى، وبين الإنسان البسيط، مسافة كبيرة للغاية.

لهذا تأسس الاعتقاد بقيام علاقة وثيقة حميمة بين الرسول عليه السلام وبين الله سبحانه وتعالى. وهكذا أصبح هذا الاعتقاد جوهر التصوف ولبه. كما تأسس الاعتقاد بوجود واسطة بين الله والناس. تماما مثلما لا يقوم المواطن البسيط بالتعامل مباشرة مع رئيس الدولة لكن من خلال المسئولين أو المحامين، ولهذا السبب ظهر الأولياء والقديسون.

(*) البروتستنتية؛ طائفة أسسها مارتن لوثر بعد أن وضع على باب الفاتيكان "اعتراضاته" أى "بروتيست" على رؤية الكنيسة الكاثوليكية للمسيحية، خاصة موقف البابوات وصكوك الغفران التى كان الخطاة يشترونها من الكنيسة ويدفعون أموالا حتى تغفر لهم خطاياهم. البروتستنتية مذهب تطهرى، فلا يوجد أيقونات فى كنائسهم ولا اعتراف ولا ثياب خاصة للكهنة ولا باباوات ولا قديسون أو قديسات ولا رهنية. (المترجم)

في مصر، تعتقد الكنيسة القبطية بشكل قوي بوجود القديسين. فمع أن التحول من المسيحية - إلى الإسلام - كان بطيئا، وعبر قرون متعاقبة، يمكن القول بأن تقديس الأولياء ظهر في فترات التحول هذه، وتكرر ذلك في بلدان أخرى. وفي ما عدا السعودية التي يحكمها نظام تطهري، حيث تم تحطيم قبور وأضرحة الأولياء بطريقة متعمدة؛ فمن النادر أن تجد دولة إسلامية لا تنتشر فيها الأضرحة و"المقامات" والتي يُعتقد أنها تحتوي - لكن ليس حتما - على عظام الأولياء وآثارهم والتي يحج إليها الناس يتوسلون بها وساطة بين الخالق وبينهم.

لا يوجد نظام كهنوتي في الإسلام السني؛ فالمسلم الفرد، المتدين، الذي يمتلك بعض العلم المتعلق بالقرآن، وبالفرائض. يستطيع أن يؤم المصلين، وأن يعظهم في صلاة يوم الجمعة. وهكذا نجد غياب سلطة مركزية إسلامية على الرغم من وجود مؤسسات تحظى بنفوذ ديني مثل مؤسسة الأزهر. وينتج عن هذا، غياب سلطة تعلن قدسية ولي، أو ترفض قدسية ولي آخر. لقد تأصل عدم الاهتمام بالأولياء في العديد من المتدينين، الذين يحتلون المراكز المهمة في السلطة. هذان العاملان تسببا في وجود إهمال رسمي متعمد في الاعتقاد بالأولياء. ففي مقابر الخانكة خارج القاهرة، توجد أضرحة لستة أولياء على الأقل، توفوا جميعا منذ سنوات قليلة (زمن كتابة الكتاب)

تصيبنا الدهشة ونحن نراقب ظاهرة الأولياء في الدلتا وفي الصعيد؛ حيث ظهرت أعداد كبيرة من الأولياء في سنوات الستينيات والسبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين. وهكذا، تنتشر الأضرحة وتتكاثر على الرغم من ضرورة شرط تسجيل الأضرحة في الدوائر الرسمية المعنية في مصر.

يذكر القرآن في أكثر من موضع اصطلاح " أولياء الله " لكن دون تحديد مهام لهم. ونجد أن الله والرسول، والمؤمنين الصادقين، يُدعون بلقب " أولياء " للبشر. وطبقا للقرآن فهذا الولي لا يعرف الخوف أو الحزن " أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ" (آية: ٦٢، سورة يونس). وبالتدريج اكتسب الولي- بعد ذلك وعلى مر الزمن - صفة القداسة.

قدمت هذه الفقرات، بالإضافة إلى الحديث المنسوب للرسول ومعاصريه، أساس الاعتقاد في الأولياء.

يحمل الولي داخله قبسا من " نور الرسول " كما أنه " العارف بالله " وهذا يعني معرفة مباشرة بالله، تتجاوز ما يتعلمه المرء من الكتب، يقول الشيخ أحمد رضوان إن المعرفة نوعان : "النوع العادي وتلك التي تملأ القلب وتبهج الروح"، وفي حالته وحالة كثيرين آخرين، فإن هذه المعرفة الخاصة يتم اكتسابها أثناء التبتل في الصحراء - بالنسبة له - حينما كان ذكر الله، طعامه، والتأمل نومه.

عادة لا يُعرف الأولياء بهذه الصفة فى أثناء حياتهم، على الرغم من وجود استثناءات مثل الشيخ موسى الذي كان يعيش في الكرنك ويوزع البركات ويقوم بالنصح من غرفته.

يقول الشيخ زاهر إن الله قد أخفى خمسة أشياء في خمسة أُخرى:

- يوم الجمعة؛ حيث أخفى ساعة الإجابة، أي الوقت المحدد لسماع واستجابة الدعوات.
- الأيام العشر الأواخر من رمضان؛ حيث أخفى ليلة القدر.
- حياة الإنسان؛ أخفى ساعة خروج الروح من الجسد.
- الأبدية؛ حيث أخفى يوم الآخرة.
- وبين الناس أخفى أولياءه.

لكن الأولياء يعرفون بعضهم بعضا وهم على اتصال بعضهم ببعض سواء كانوا أحياء أو أمواتا. إن القدماء الذين كتبوا في علوم الصوفية، طوروا نظرية تقول إن درجات مختلفة من الأولياء يحكمون العالم بقيادة قطب من الأقطاب الموجود في عصرهم.

ففي كتاب " **المدرسة الرضوانية في الأحوال الربانية والأسرار الإلهية للقطب العارف بالله تعالى الحاج أحمد رضوان - تأليف المحب الصادق الحاج أحمد عبد الملك "** يصف المؤلف كيف أصبح الشيخ أحمد رضوان (طبقا لما قاله عن نفسه) "غوثا"

وذلك بعد خمسة وأربعين عاما من التبتل والزهد. قال : "انتقل واحد من الغوث إلى رحمة ربه وتبعه آخر، حينئذ قدمني الرسول إلى مجمع الأولياء؛ تناول يدي وقدمني لهم حتى يعرفوا أن أحمد رضوان خادم الرسول ليس هو من ولى نفسه بل إن الرسول هو الذي ولاه".

يتضمن كتاب سيرة حياة الشيخ أحمد رضوان بعض الأمثلة على اتصالاته بالأولياء الآخرين وبمعرفته لأماكن وجوهم قال **الكاتب: "زرت مرة القطب الكبير الشيخ أبا الحجاج الأقصري رضى الله عنه ونفعنا به، وقد كان ذلك بصحبة بعض الإخوان فقال لي ذلك الأخ : إن الشيخ أبا الحجاج غير موجود في برزخه، ألا تعرف لماذا خرج ؟ فقلت لا أعرف شيئا عن ذلك وأخذ يكرر السؤال وأنا أجيب : لا أعرف. فمكث مشغولا وعزم أن يسأل الشيخ عنه فاجتمعنا به رضى الله عنه بعد زيارتنا أبا الحجاج التي كانت الساعة الخامسة والربع مساء وعرض مهمته على الشيخ فقال له: إنكم زرتم أبا الحجاج بعد الساعة الخامسة مساء حيث كان في عيدروس جنوب البلاد اليمنية، لأن ولي الله الشيخ العيدروس توفى الليلة وحضر الشيخ أبو الحجاج وفاة هذا العالم الجليل رضي الله عنه ".**

الصوفي -إذن - تحوطه نعمة البركة وبالإمكان أن تنتقل إلى سلالته ومريديه وزواره. وإذا ما توفى الشيخ الولي، ولم يطعن في العمر بعد، فإن والده بإمكانه أن يرث بعضا من هذه البركة، كما في حالة والد الشيخ سيد ذكري من قرقطم الذي يقرأ الفاتحة مع زوار ضريح ابنه الشيخ. المصدر الرئيسى للبركة هو الله، بواسطة الرسول. كذا فإن الأشياء التي لها علاقة حميمة بالرسول أو بالولي مثل الضريح أو التراب بجوار الضريح، وحتى كل المنطقة المحيطة، تكون محمّلة بالبركة أو تكون مصدرا للمدد المباشر، والذي يمكن التزود منه بالقيام بزيارات متكررة للمقام، خاصة في أوقات وأيام معينة.

وبالإضافة إلى الحصول على البركة أو المدد فإن زوار الأضرحة يعتقدون أنهم يستطيعون الحصول على وساطة الولي لكي يتدخل بينهم وبين الرسول، أو عند الله، بدلا من التوجه مباشرة إلى الله المتعالى، لذا من المستحسن التوسل بسؤال الأولياء،

للحصول على بعض المقاصد أو تجنب بعض الضرر. وكما قال الشيخ رضوان : " يستطيع الأولياء الحصول على أي شيء من الله سبحانه وتعالى، لذا من الطبيعي التوسل بهم إلى الله للحصول على المراد أو تجنب الضرر. إن طلب العون من الله جائز مادام سبحانه وتعالى لم يتخذ أمره بعد؛ لأنه حينئذ سوف يصمت الولي ويحجم عن التوسل لله" إن طلب العون من الأولياء غالبا ما يصحبه نذر ما : إذا ما توفرت الصحة لابني العليل، أو إذا ما أعطاني الله جنينا، فإني سأذبح ذبيحة على اسم الولي في مولده أو في العيد المقبل. وعلى ضريح الولي نجد نموذجا لقارب قدمه مراكبي وفاء لنذر بعد وصوله سالما من رحلة خطرة. فوق ضريح سيدي أبو القمصان في أخميم نجد نماذج لطائرات قديمة الطراز وبجوارها قاربان صغيران.

أحيانا نجد بعض القصص عن العون من الأولياء تتشابه كثيرا مع قصص البيروقراطية المصرية.

"حضر عندنا بعد المغرب الأخ إسماعيل حسن فقال له الشيخ : إنك حاضر من زيارة الشيخ أبي الحجاج الأقصري، فقال نعم، ثم قال له : لقد رفع مصلحتك إلى الله تعالى، وذكر له الشيخ نفس المصلحة وحددها، وسأل الله تعالى قضاءها، فأقر الأخ إسماعيل ما ذكره الشيخ وما ذكره عند زيارته للشيخ أبي الحجاج رضي الله عنه "(*) ثمة تشابه يمكن ملاحظته هنا بين التوسل من خلال الرسول أو الأولياء، وبين التوسل من الناس العاديين إلى الفرعون، من خلال الأشخاص ذوي النفوذ لديه. فلم يكن يُسمح للناس العاديين بالمثول أمام الفرعون أو دخول المعابد والتواصل مع الآلهة. كان عليهم أن يخاطبوا " هيئات الآلهة " الموجودة في التماثيل القائمة خارج حرم المعبد. ثم يقوم التمثال الخاص بهذا الإله بتقديم التماساتهم إلى الإله الأكبر الخاص بهذا المعبد. وفي معبد الكرنك يوجد " معبد الأذن المصغية " الذي شُيّد خصيصا لهذا الغرض، كما أن المناطق الخارجية لقدس الأقداس تكون مزدحمة بالأشكال والهيئات التي تمثل وظائف " الإصغاء إلى الصلوات ".

(*) من كتاب المدرسة الرضوانية في الأحوال الربانية والأسرار الآلهية. (المترجم)

هناك خطر يكمن في طلب العون من الأولياء، وهو أن يظن الناس، أن الولي هو الذي قدم العون وليس الله بواسطة الولي. ومن هنا فإن الأصوليين الإسلاميين يعتبرون هذا الاعتقاد يصل إلى درجة الشرك بالله.

إن الشروط المتطلبة لاعتبار شخص ما حائزا للولاية هي، قيامه بالإتيان بالكرامات فى أثناء حياته. تجليه للآخرين في الأحلام والرؤى. وحينما يتم التثبت من كرامة الولي تكون أعماله العجائبية وفضائله، ليست هي المحك الأساسي، بل علاقته بالله سبحانه وتعالى.

بعض الأولياء الصالحين يمرون بعدة درجات من الأنوار الربانية خلال حياتهم. مثل الشيخ أحمد رضوان المولود عام 1895 والذي ينتمي إلى عائلة معروفة من ملاك الأراضي ولها باع طويل في التدين. إنهم من سلالة الرسول من خلال سيدنا الحسن. وتلقى الشيخ تعليما إسلاميا في الشريعة وحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب في سن مبكرة. حينما بلغ الثانية عشرة قام بأول تبتل له في مغارة منعزلة لمدة شهرين كما أصبح من المريدين في الطريقة الخلوتية.

يقدم لنا مؤلف كتاب " المدرسة الرضوانية " شرحا تفصيليا للأطوار التي مر بها الشيخ، فيقول عنه في الطور الأول: " صحو وغيبوبة وتجريد وهيام وقطع للأسباب وخلع للثياب، ورفع للكف والأنين. كما تغلبت عليه هيبة العظمة فكان يستيقظ من نومه متغير اللون، وبعد لحظة يقول لي: كنت أعتقد أن القيامة قد قامت، وكنت أعرف عن فضيلته أحوالا جلية لا تنال بغير النفحات الإلهية ".

عن الطور الثاني يقول: " كانت بدايته حديث سيادته بالسرياني، والمراد باللغة السريانية هنا ليست لغة السريان الذين يسكنون بلاد الشام وغيرها وتدرس بالكليات ومعاهد الآداب. فهذه لغة مكشوفة ولكن السادة أطلقوا لفظ "السريانية " كاصطلاح للغة التي يتحادث بها أهل الله في حالات المنازلات الروحية. هي لغة إلهية خاصة قد تتصل من قريب أو بعيد ببعض الألفاظ السريانية أو العبرية القديمة أو غيرها ولكنها ليست هي، لهذا نطلق عليها " لغة أهل الله "، وقد سمعت من بعض المحبين أن

مولاي الشيخ أحمد رضوان رضي الله عنه كان يسميها "لغة الأرواح"، وقد ذكر القوم في كتبهم أن اللغة السريانية ينطق بها أهل الغوث والأقطاب السبعة دون تكلف أو تعلم " أما في المرحلة الثالثة " فكان الجلوس بين يديه رحمة والاجتماع به غنيمة. إنه طور النفحات التي تنتعش بها الأرواح وتهتز لها المشاعر. إنه طور تأسست فيه المدرسة الرضوانية باتباع الكتاب والسنة وربما قال: "والله الذي لا إله غيره ما قلت لكم إلا ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم " وفي هذه المرحلة - كما قال لي ابنه - كان القرب من الله بالنسبة له صعبا عليه تحمله وكان نحيفا للغاية وهشا".

حبا الله الشيخ رضوان بنعمة الكشف، فهو يعرف أسماء الناس الذين لم يلتق بهم من قبل ويكشف لهم مشاكلهم التي قدموا من أجلها إليه ليستشيروه فيها.

توفى الشيخ رضوان عام 1967 بعد عشرين سنة من تأسيس طريقته الرضوانية وإتيانه بالعديد من الكرامات، ويتوسط ضريحه الساحة الرضوانية، وهي مركز نشاط مريديه يقودهم أبناؤه الأربعة. ويفد على الساحة عدد كبير من الزوار حيث يُقَدّم لهم الطعام والضيافة. كما توجد ساحة رضوانية أخرى في مدينة الإسكندرية.

احتفظ الشيخ رضوان بعلاقات وثيقة مع عدد من المسئولين في نظام جمال عبد الناصر، وقيل أيضا مع الرئيس ناصر نفسه. توجد بضعة آراء حول علاقة الشيخ بالتجهيزات لحرب1967، البعض يزعم أنه شجع عبد الناصر على الحرب والبعض يزعم أنه حذره من شنها، كما قال الشيخ زاهر وهو واحد من المعجبين بالشيخ رضوان، لكن ناصر لم يستمع إلى نصيحته كما يقول الفرقاء، الذين قالوا إن الشيخ - حينما عرف بعدم اتباع نصيحته بالعدول عن الحرب - رجع من القاهرة التي كان يزورها وقتها ، إلى قريته رافضا أن يشاهد الهزيمة، أو هكذا قال لمريديه حيث توفاه الله في الرابع من يونيو، قبيل الحرب بيومين.

قال لي ابنه الشيخ محمد إن ناصر بعث سكرتيره الخاص عام 1966 ليعد لزيارة ناصر للشيخ رضوان، لكن الشيخ فضّل أن يذهب بنفسه إلى القاهرة لزيارة ناصر.

قال: " إذا ما استقبلته هنا سيكون عليّ أن ألتزم بواجب الضيافة (أي لا يغضبه) ، لكن إذا ما كنت أنا الزائر ولست المضيف فليس عليَّ من حرج إذا ما قدمت له النصيحة "، وخلال لقائه بناصر، يُقال إن الشيخ أبلغه بأنه لا يرى نصرا ما في المستقبل القريب، لكن هذا لم يكن كافيا كما يبدو لإثناء ناصر عن عزمه.

يُعتبر الشيخ أحمد رضوان الأنموذج الواضح للولي، فهو يحظى باحترام الجميع، كما أنه سليل عائلة عريقة لها باع في التدين، حظي بقدر طيب من التعليم. ومع أن عائلته تحظى بوضع خاص من خلال ارتباطاتها الدينية فإنها ليست في حاجة إلى العطايا المالية من زوارها، بل إن الزوار يتلقون الهدايا عند انصرافهم كما حدث لي حينما أعطاني الشيخ محمد كتاب "المدرسة الرضوانية" وورقة بنكنوت بقيمة عشرين دولارا أمريكيا كهدية ما زلت أحتفظ بها.

إن الشيخ أحمد الطيب ينتمي هو الآخر إلى الطريقة الخلوتية (توفى عام 1950 بالأقصر)، يعتبره الناس البسطاء هناك من أولياء الله الصالحين. على الرغم من عدم وجود ذكر لكرامات له، لكنهم يقولون " حياته كلها كانت كرامات متصلة " كما أن مريديه لا يشعرون أن شيخهم بحاجة إلى كرامات. ويدير أولاده ساحة كبيرة تستقبل الزوار والمريدين وبها مسجد للصلاة.

في الطرف الآخر من التسلسل الاجتماعي، نجد أولئك الأولياء الذين لم يحظوا بقدر من التعليم والذين يبجلهم عامة البسطاء، انتسابهم للأولياء الصالحين يعود سببه إلى كراماتهم والأسلوب المتميز الذي شكّل طريقة سلوكهم، وارتباط مريديهم بهم، مبنيا على مشاعر عاطفية قوية. إنهم يحظون بالثقة والرهبة. أحد هؤلاء هو "أبو القمصان" الذي توفى في قنا شهر مارس عام 1984 ويقام حول ضريحه مولد بحجم لا بأس به كل عام في ذات الشهر، لكن مريدي الطرق الأخرى مثل مريدي الشيخ الطيب لا ينظرون باعتبار كبير إلى ولاية أبى القمصان. ومن المؤكد أن الشيخ الطيب كان سيتعامل بالطريقة ذاتها مع أبي القمصان كما يفعل ابنه الشيخ محمد الآن.

نجد في بعض الحكايات التي تُنسب إلى كرامات أبي القمصان أن الشيخ الطيب يقوم بلعب دور مهم.

تقول الحكاية إن الشيخ الطيب رفض طلب أبى القمصان ان يحمله معه في سيارته إلى المكان الذي يقصده أبو القمصان، لكن حينما وصل الشيخ الطيب إلى هذا المكان بعينه، وجد أبا القمصان جالسا هناك، وكما تقول الحكايات إن أبا القمصان باستطاعته عبور النيل جالسا فوق منديله، حينما رفض ريس المعدية السماح له بالركوب لغلظته مع السائحين؛ يوبخهم على ما يراه في اعتقاده من تصرفات لا أخلاقية.

كان الشيخ الطيب يقوم بالحج سنويا (كان ثريًا) أما أبو القمصان الذي كان فقيرا فقد لحق به هناك في الحجاز بكرامة من كراماته، فذات صباح طلب أبو القمصان من زوجته أن تخبز خبزا، لكي يعطيه للشيخ الطيب الموجود في مكة آنذاك. وبالفعل خبزت الزوجة، وقدم أبو القمصان الخبز وهو لا يزال حارا إلى الشيخ الطيب في مكة.

وبالنسبة لأصول ولاية أبو القمصان فثمة حكاية ترويها ابنته السيدة أم يوسف كما يلي : لمدة دقيقة واحدة كل سنة يتوقف نهر النيل عن الجريان؛ إنه ينام وبعد انتهاء الدقيقة يبدأ في الجريان مرة أخرى. من يشرب من ماء النهر في تلك الدقيقة يصبح وليا. لقد قام شقيق ابى القمصان ببناء كوخ على الشاطئ لكي يراقب لحظة نعاس النيل، لكنه لم يفلح لسنوات عديدة. جاء أبو القمصان لزيارته وأراد الأخ أن يجلب بعض الماء من النهر، لكن أبا القمصان ذهب بنفسه ورجع قائلا " لقد شاهدت شيئا غريبا فبينما كنت أجلب المياه وجدت النهر ساكنا لا يتحرك وبعد أن ملأت الدلو بدأت الأمواج في الرقص!"

يقال إن أبا القمصان تجول في مصر طولا وعرضا، لكنه كان يعرف أنه سيموت في بلدته قنا، وأن أسرته لن تكون في عوز بعد وفاته. وهكذا حلمت حفيدته أنها شاهدت أضواء ورايات وطبولاً وفطائر مسكرة، وأن جدها ينبعث منه الضوء، من ذات المكان الذي بُني الآن فيه مقام أبى القمصان حيث يُقام فيه مولده كل عام. لا يوجد قبر في مقامه لأنهم يقولون إن جثمان أبى القمصان طار. فقد كفنته عائلته ووضعته فوق الخشبة داخل بيته، لكن حينما حمل الرجال الخشبة وجدوها خفيفة للغاية (هذا يقال عن كثير من الأولياء، كيف تطفو الخشبة فوق أكتاف حامليها وغالبا ما تحدد مقصدها بالتوجه إلى المكان الذي يرغب الولي أن يُدفن جثمانه فيه. إنها تقود موكب الجنازة) وحينما تكشف الرياح الكفن، ساعتها يبدو خاليا.

تحققت رؤيا أبى القمصان في حلمه عن اطمئنانه للحالة الاقتصادية لعائلته بعد وفاته؛ فالهدايا والنذور من زوار المقام لا تنقطع. يمتلك أولاده موتوسيكلين بينما تقوم واحدة من بناته بمباركة الزوار والدعاء لهم؛ بأن تقبض على رءوسهم وتخرج من فمها أصواتا غليظة. يزعم أولاده أن المجلس الأعلى للآثار يقف في سبيلهم إلى بناء ساحة بحجة أن المنطقة أثرية.

الأكثر إثارة للدهشة من أبي القمصان هو أبو موسى الذي توفى في الكرنك في مايو 1988 وقد تجاوز السبعين، قضى العشرين عاما الأخيرة من حياته في غرفة مصمتة دون نوافذ، ولها باب واحد يفضي إلى ردهة صغيرة هي ساحته المتواضعة (الساحة الموسوية)، ونجد أمام الساحة الضريح / المقام الذي تم تشييده في حياته لاستقبال جثمانه بعد وفاته.

يستقبل الشيخ موسى زواره وطلاب الحاجات يوميا في ساعة متأخرة من الصباح وليلا أيضا. ينتظره الزوار في الردهة الداخلية بينما يقوم ابن شقيقة الشيخ استقبال الزوار وطلاب الحاجات. إنه شاب في الثلاثينيات، يقرفص عادة، بجوار باب غرفة الشيخ موسى. وحينما يفتح الشيخ الباب من الداخل فإنه لا يخرج بل يكون جالسا في الفتحة الضيقة. يقدم ابن الأخت الزوار للشيخ فردا فردا. يقوم الزائر بتقبيل يد الشيخ اليمنى، بينما يضع الشيخ يده اليسرى على رأس الزائر. إذا كان للزائر حاجة أو طلب فإنه لا يتقدم به مباشرة إلى الشيخ، بل يقوم بذلك نيابة عنه ابن الأخت. إذا كانت الإجابة عن سؤال مثل: هل أقوم بهذه الرحلة ؟ سلبا فإن الشيخ يقول: " افعل ما تريد "، لكن إذا كانت الإجابة بالإيجاب يقول الشيخ: " توكل على الله ". ما يظهر من الشيخ هما يداه فقط. وحتى أفراد أسرته يزعمون أنهم لم يشاهدوا الشيخ منذ أن اعتزل في غرفته هذه.

لا يلتق الشيخ مباشرة إلا برجلين : رجل يجلب الماء للشيخ، وكذا الحلاق الذي يحضر ثلاث مرات في الأسبوع ليحلق له ذقنه. وقد رأيت الحلاق في صالون الحلاقة الذي أسماه " صالون الشيخ موسى " في السوق الشعبي بالأقصر. لم يكن يرغب في التحدث معي عن الشيخ حتى بعد وفاته خوفا من غضب الشيخ عليه لو فعل.

لقد زرت الشيخ موسى وشاهدته الساعة الثامنة والنصف صباحا حينما كان ابن الأخت يقدم له صينية عليها إفطاره

من خلال الباب المفتوح قليلا، كمية كبيرة من الطعام (فول وفلافل وخبز وبصل أخضر وشاي شديد الحلاوة) لم يأكل منها سوى القليل ليرجع الباقي، غالبا يكون محملا بالبركات، ثم جُهزت له الأرجيلة، التي دخن منها بضعة أنفاس.

يقال إن الشيخ موسى عبر النيل -أيضا- فوق منديله، وإنه يغادر غرفته المغلقة أحيانا بشكل عجائبي ليتجول (سائحا) بأشكال متعددة فهو من أولياء الله. ومنذ طفولته كان طفلا متميزا عن الأطفال الآخرين، فقد رضع اللبن من أصبعه بدلا من ثدي والدته. لم يشاهده أحد يصلي الفرض.

تقبلت مني عائلة الشيخ موسى بعض النقود بصعوبة بالغة وبعد إلحاح شديد. أعطوني علبة من البسكويت لكي أقدمها للشيخ على سبيل الهدية، الذي بدوره أهداني علبة أخرى من البسكويت.

عند وفاته ظهرت في القاهرة شائعة بأنه (جثمانه) قاد حاملي النعش ليعودوا به إلى غرفته ليدفنوه هنالك. أما في الأقصر فقد قيل إن خلافا نشأ بين الناس في قريته التي ولد فيها حول مكان دفنه وإنه خلال الجنازة (جعل جثمانه ثقيلا) لمدة عشر دقائق إلى أن قرر أن يكون موضع دفنه في المقام المشيد من قبل.

ذهبت بعد ذلك إلى الساحة والمقام، وقال لي الناس هناك إن الشيخ موسى "قام بدفن نفسه " وإنه كان يعرف طريقه دون تردد. فمن مسجد الشيخ يوسف حيث أُقيمت الصلاة على جثمانه، توجه مباشرة إلى المقام.

إن شخصية الشيخ موسى كولي، مشابهة لشخصية الشيخ سليم، الذي يظهر لنا في يوميات الرحالة في القرن التاسع عشر، في صعيد مصر، حيث كان يجلس على شاطئ النيل عاريا نهارا وليلا بالقرب من قرية " هيا " وقد سحب ركبتيه إلى ذقنه. بقي هناك لأكثر من خمسين سنة. حينما توفى عام 1891، كان المراكبية يتوقفون ناحيته ليقدموا له التبغ ويقبلون يديه. أما الذين لا يفعلون ذلك سيجدون أنفسهم وقد غرزت بهم مراكبهم في الرمال. اعتبره معظم المسافرين الغربيين مثيرا للاشمئزاز. ودون شك، فإن مقاما قد شُيد له بعد موته.

إن ضريح " الشيخ سليم العريان " موجود في مكانه على النيل حيث كان يجلس، وليس بعيدا عن مصنع الألومونيوم بالقرب من نجع حمادي. أبواب الضريح مزينة بقرون الكباش التي ذبحت كرامة للشيخ. سألت حارس الضريح : " هل كان بالفعل عاريا ؟" أجاب : " بالطبع لا.. لكننا أطلقنا عليه هذه الصفة ".

أما الشيخ زاهر المنتمي للطريقة الرفاعية والمقيم في شرق الدلتا، فهو يعتبر نفسه ومعه أسلافه من المشايخ، وسطا بين هؤلاء الأولياء الذين أشرنا إليهم. فلم يكن جده أحمد أبو زغلل أو والده عبد الله، وكلاهما مدفون في الساحة الخاصة بهما في بلدته بالقرب من بلبيس، لم يكونا قد نالا حظا من التعليم بالمفهوم الأكاديمي، بل يمكننا أن نطلق عليهما لقب المستنيرين. كلاهما تعامل مع الولاية باعتبارها نهاية الطريق للمتصوفة، من خلال الزهد، والتقشف، وتحقيق الكرامات (فقد أوقف الشيخ أحمد سريان وباء الكوليرا بعد أن استقر به الحال في كفر إبراهيم) كما أنهما بذلا الاهتمام الكبير بمريديهم. يحافظ الشيخ زاهر على ذكراهما حية، بمواصلته مشيخة الطريقة، التي تضم ما يقرب من ألفي مريد ومحب.

من علامات الولاية - التي يشتهر بها الصعيد- أن جثمان الميت لا يصيبه التحلل. ينطبق هذا على العديد من المشايخ مثل سيدي سيف الأصفوني (من أصفون) والذي فتح قبره شخص ما بالصدفة حينما كان يحفر في أرضه، ووجد دما حديثا على سن الفأس. كذا الشيخ مسلم من أخميم والذي طاف الناس بجثمانه في شوارع المدينة بعد أن عثروا عليه سليما منذ سنوات قليلة. وحالة مشابهة للسبعة والسبعين وليا والذين تجمعهم جبانة كبيرة في أسوان ويقال، إن أجسادهم باقية على حالها.

باختصار، هناك أولياء بدرجات مختلفة.

يقول الشيخ أحمد رضوان: " كان هناك وقت اشتقت فيه لقاء ولي من الصالحين، والآن أرى حولي جمهرة منهم من الأحياء والأموات والله الذي لا إله إلا هو يمكن حتى للنصراني أن يصبح وليا بعد نطقه بالشهادتين ".

منذ البداية كانت هناك تيارات في الإسلام ترفض الاعتراف بالمعجزات (عدا تلك المكتوبة في القرآن والتي قام بها الأنبياء) وتعترف الغالبية بها، لكن تفسرها بأن الله قادر على كل شيء، وأنه يختار من يريد من عباده المؤمنين لكي يظهر قدراته بالشكل الذي يختاره سبحانه. إن أهل الطرق الصوفية لا يساورهم الشك مطلقا أن مشايخهم يقومون بالمعجزات، لكن أهل التصوف الكبار لا يؤمنون بالمعجزات كثيرا مثل، " الجنيد " الذي يعتبر أن الاهتمام بالمعجزات، دليل على عدم التخلص من غرور الدنيا والرغبة فيها بدلا من الحظوة برضاء الخالق. وحينما سمع برواية عن شخص قيل إنه يطير في الفضاء علق بقوله انته، من المستحسن أن لا يضيع شخص ما وقته في أمور غير مفيدة.

يقول الجنيد إن الكرامات مكونة من ثلاث درجات، واحدة منها تملأ قلب المؤمن، وواحدة تحض على العبادات، والأخرى على أمل دخول الجنة.

سُطر العديد من الدراسات والكتب عن الكرامات التي ظهرت منذ العصور الأولى وعن كرامات حديثة تؤتى في كل وقت. الكثير من هذه الكرامات يرجع إلى قدرة الولي على رؤية ومشاهدة ما لا يمكن للآخرين رؤيته ومشاهدته. هذه القدرة لا يحوزها بالطرق " العادية " كما أنه يستطيع تحقيق بعض الحوادث بعينها (يحمي مريديه من عواقبها)، لكنه يشفي الأمراض ويسهل الحمل للعاقر، وأحيانا يجعل أولئك الذين لا يؤمنون بالتصوف ولا بالكرامات، يؤمنون بها.

إن العديد من الأولياء - لكن ليس جميعهم - ينتمون إلى طرق صوفية بعينها. سوف أشير إلى البعض كمثال، ومعظم الأمثلة هنا معاصرة. هذه الأمثلة تقدم بعض الانطباعات عن عالم الأولياء، وكراماتهم التي ينظر إليها بعض الناس بإيمان.

قال لي عمدة قرية صغيرة في الدلتا " حينما كنت في العشرين كنت مجرما شقيا. ذات يوم كنت في طريقي أنا ورفاقي لسرقة شخص ما، مررنا ببيت الشيخ أحمد أبو زغلل حيث نادى عليّ، بالطبع تركت سكيني في الخارج، حينما دخلت عليه أخذ يؤنبني وكشف لي أنه يعرف نيتي بسرقة ذلك الشخص وقال لي إنه لا فائدة من إخفاء سكيني؛ فهو يعرف كل شيء ! ساعتها قررت أن أغير حياتي وأصبحت مريدا في الطريقة الرفاعية التي ينتمي إليها الشيخ."

وفي مرحلة لاحقة كان الشيخ أبو زغلل يؤم المصلين، بينما كان العمدة واقفا في الصف الأخير وقد سرح بخاطره في امرأة معينة. حينما انتهت الصلاة نادى عليه الشيخ وقال له: "مع من أنت ؟ مع الله أو مع المرأة ؟ لقد ضايقتني حقيقة فى أثناء الصلاة".

والعديد من قصص الكرامات تروى عن الشيخ أبو زغلل؛ منها أن الشيخ ظهر للعديد من الناس في القرية بعد وفاته (عام 1975). يذكرهم بأن يقوموا بإطعام الكلاب التي تم إهمالها، بسبب غزارة هطول الأمطار آنذاك (1980)، أو تراءى لمريديه يحثهم على القيام بعمل مولده (عام 1987). وفي الكتاب الذي به فصل مخصص لكرامات الشيخ أحمد رضوان سأختار هذه الكرامة من مائة كرامة ومعظمها له طبيعة التخاطر: كان الشيخ في قنا فطرأت عليه حالة غريبة وكان ذلك فى أثناء الأكل، فسكت القوم فترة طويلة، وبعد الهدوء عاد إلى طعامه وقال إن بنت أخي الحاج محمود عبد الوهاب في حالة وضع بالإسماعيلية وكانت في شدة، فلم أستطع تناول شيء إلا بعد أن فرج الله عنها وتم الوضع والحمد لله، رزقها الله ولدا ذكرا. وأخذ يصف المولود نفسه وهيئته، وبعد ساعات وصل تلغراف من الجهة التي تم فيها الوضع لتهنئة الأسرة بقنا ".

ونجد في الكتاب الذي يقدم لنا كرامات الشيخ، بعض السخرية من المسلمين "الرسميين" الأكاديميين الذين يمثلون دوائر دينية لا تؤمن بالتصوف والكرامات، الذين يعتمدون على الكتب فقط، عدد لا بأس به من حكايات الكرامات متعلق بالكشف عن عدم طهارة شخص ما، تحول بينه وبين أداء الصلاة. فإما أن يقوم الشيخ بعقابه بطرده، أو بمساعدته ليزيل حرجه.

يقول الشيخ زاهر " الكرامات هي الوقود الذي يقود عملنا. كثيرا ما يشعر قلب المؤمن بإمكانية حدوث شيء ما لكن العقل يرفض ذلك. حينئذ تتدخل الكرامة لإثبات صحة ما أحس به القلب، فحينما يرفض العقل الاعتراف بما يشعر به القلب، فإن الكرامات تتدخل هنا لتقنع الإدراك، بدون الكرامات يتعطل الوجود الإنساني ".

ولقد أشرت من قبل كيف أن كبار مشايخ المتصوفة، ينظرون باستهانة إلى مبدأ الكرامات دون أن ينكروها، إنهم يعتبرونها الوسائل التي يتخذها الله سبحانه لكي يزيد من إيمان الناس به.

يعتقد عامة أهل الطرق الصوفية أن الأولياء يعرفون الاسم المائة، من أسماء الله الحسنى. من يعرفه - يقال - قد ضمن الجنة. يعطيه الاسم المائة قدرات تفوق القدرة البشرية العادية (وهو تفكير مشابه للفكر الفرعوني الذي يلقن الفرد مقاطع محددة تؤمن له الولوج للعالم الآخر) السحر هنا ليس ببعيد عنا، حتى لو أنكر زوار الأضرحة ذلك ومعهم أهل التصوف. هناك اتهام لهم بأنهم يحاولون استمالة الله إلى جانبهم، لتحقيق مآرب لهم بتلاوة صيغ معينة. نجد ذلك في أوراد الطريقة البيومية. هذه الطريقة تصف بدقة كيفية تلاوة أسماء بعينها من أسماء الله الحسنى. أو صيغ أخرى، تتلى في أيام بعينها، مثل اليوم الأول للأسبوع كتلاوة " لا إله إلا الله " وتلاوة لفظ الجلالة 165 مرة مضروبة في 17434 مرة، أو أن يتلى لفظ "هو " حتى عشر مرات مضروبة في 14641 مرة.

كثير من المشايخ، بما فيهم الشيخ زاهر، يكتبون أحجبة للوقاية من الحسد وضد أوجاع البدن وأمراضه. يقال إن عين الحسود تفلق الحجر. لقد ذكر القرآن الحسد في سورة الفلق، فمن الممكن لأي شخص أن يحسد الآخرين حتى دون أن يقصد ذلك أو يشعر به.

على الرغم من أن الأولياء يمكنهم الإتيان بالكرامات والمعجزات أثناء حياتهم، وبعد وفاتهم، فليس من الصواب أو الجائز مقارنتهم بالرسول، الذي هو طبقا للدين الإسلامي، خاتم الأنبياء والمرسلين. وكما قال الحديث النبوي " تبدأ النبوة حينما تنتهي الولاية ".

علاقة الناس بالأولياء مثل علاقتهم بأقاربهم المسنين الذين يحترمونهم. ينادونهم بلقب " أمي وماما، أبويا، وعمي " يُزارون ويُوعدون بالهدايا والتقدمات، إذا ما حققوا لزوارهم مقاصدهم. أحيانا يستجيب الأولياء لبعض الزجر، كما في حالة

"عم عوض الأصفوني " فبجوار ضريح الولي، تعيش أسرة " عم عوض " وتعتبر نفسها في حمايته وتقوم بخدمة الضريح، ذات يوم اكتشفت الأسرة سرقة كل الثياب التي يحوزونها، أعلن رب الأسرة بصوت عال، عدم رضاه عن الولي. أقسم أنه لن يواصل خدمة الضريح وتنظيف المقام، ما لم يُرجع الشيخ إليه المسروقات. كان هذا بالليل، وما إن أصبح الصباح، حتى ظهرت المسروقات كلها في المقام، وواصلت الأسرة خدمة الضريح.

بعض الأولياء تصلهم خطابات مثل أبو السعود والإمام الشافعي بالقاهرة.

عادة ما تكون الأضرحة عبارة عن بناء مربع الأضلاع ومتواضع تعلوه قبة مستديرة. الأضرحة المهمة تُبنى المساجد حولها، لتكون مركز المسجد. في كل الأحوال فإن القبة تكون فوق المقام الذي به القبر، وينتصب فوق التابوت الخارجي قائم توضع عليه عمة تحدد موضع الرأس يُغطى التابوت بالثياب (الكسوة) وهي عادة ما تكون خضراء اللون، وهو اللون الذي يرتبط بالرسول، وأحيانا تكون بيضاء. وعادة ما يكون القبر محاطا بمقصورة مكونة من أعمدة حديدية أو خشبية. حول المقصورة توجد مساحة للحركة التي يقوم بها الزوار. أحيانا يجلسون فيها أو يستلقون مرتاحين.

بعض الأضرحة توجد بها أشجار تعتبر مقدسة، يعلق عليها الزوار قطعا من ثياب الشخص الذي يطلب رعاية الولي من مرض أو حل مشكلة. زيارة الأولياء، يقوم بها الرجال والنساء دون تمييز، بل إن الغالبية من النساء. الأولياء الذين يرعون مشاكل النساء هم أغلبية أيضا؛ فزيارة الموالد والأضرحة هي الوسيلة التي تتبعها النساء للمشاركة في ما يعتبرونه الشعائر الدينية للجماعة التي ينتمين إليها. لا يوجد عزل لهن عن الرجال في أماكن الموالد. في الموالد تكون الزيارة مفتوحة حتى لغير أهل العقيدة الدينية. يزور الكثير من المسيحيين مقابر وأضرحة الأولياء المسلمين، كما يقوم الكثير من المسلمين بزيارة أضرحة القديسين المسيحيين. يعتقد بعض المسلمين في قدرة الكهنة المسيحيين على كتابة الأحجبة الفعالة.

تبدأ الزيارة بتحية الولي أو القديس ساعة الدخول إلى مكانه. يتلو المسلم سورة الفاتحة وهو يتلمس التابوت دائرا حوله في عكس اتجاه عقارب الساعة. وغالبا ما يقدم تقدمة نقدية. أحيانا يقضي بعض الزوار ليلتهم في الضريح.

يُسر الأولياء بزيارة الناس لهم ويشعرون بأنهم لم يهملوهم أو ينسوهم. القاهرة مدينة مكدسة بأضرحة الأولياء والقديسين. يقال إنه يوجد ما لا يقل عن ألف وخمسمائة منهم في الجبانة الجنوبية وحدها، بالقرب من ضريح الإمام الشافعي، من بين الأولياء المعروفين – وسبعة منهم مدفونون في مصر – مثل السيد أحمد البدوي في طنطا، وإبراهيم الدسوقي في دسوق، وأبو الحسن الشاذلي في وادي حُميصرة، وسيدي علي البيومي في القاهرة في الصحراء الشرقية (والثلاثة الأُول من القرن الثالث عشر) وهؤلاء الأولياء المكرمون وغيرهم أيضا ممن ينتمون إلى آل البيت؛ يتمتعون بوجود أكثر من مقام لهم في أماكن مختلفة.

فالسيدة زينب مثلا، لها أكثر من مقام خارج مسجدها ومقامها المعروف في القاهرة، ثمة مقام لها في القرنة بالقرب من الأقصر. وللسيد أحمد البدوي مقام في إسنا. وجميع من ذكرناهم من الأولياء، بالإضافة إلى مؤسسي الطرق الصوفية الرئيسية، يمكن أن تجد لهم مقامات في جبانة أسوان، التي تضم ثمان وثمانين ضريحا للأولياء. هذه المقامات، تكون غالبا، بسبب أن شخصا ما شاهد رؤيا يتراءى فيها له ولي معين، يحدد بناء مقام له (أو لها) في مكان معين. بعض هذه المقامات تحتوي على تابوت ، لذا من الصعوبة تمييزها عن المقامات الأصلية.

بالنسبة للقديسين المسيحيين، فلا يوجد قديسون جدد في الوقت الحالي. لا يرجع السبب فقط إلى أن المسيحيين في مصر يصل عددهم إلى حوالي عُشر عدد المسلمين. يوجد سببان آخران: أن القداسة تُكتسب في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية نتيجة لحالتين فقط: الشهادة و – أو – الرهبنة، بالإضافة لوجود سلطة مركزية في الكنيسة، هو البابا القبطي. فهو يوافق أو لا يوافق على إعلان قديس جديد. فالقديس لا يمكنه ان يُسجل في القائمة الرسمية للقديسين إلا إذا انقضت خمسون سنة

على وفاته. وفي هذه الحالة إذا ما أُعلنت قداسته فهي تكون دائمة. يُذكر اسمه في القداس، في جميع أنحاء البلاد وتوضع بقاياه داخل قبر في الكنيسة، ليتمكن المؤمنون من لمسها والتبرك بها.

لكن هناك استثناءات بالنسبة للباباوات..

فإذا ما أُعلنت قداسة راهب ما بواسطة الدير الذي كان يقيم فيه، حينئذ يعطي البابا موافقته، لكن دون وضع بقاياه (عظامه) في الكنيسة ذاتها، ويذكر اسمه في قداس الدير فقط. وقد حدث هذا في ديسمبر 1987 للأب يوستوس والذي سأتحدث عنه باستفاضة لاحقا؛ فقد حاز صيتا واسعا كقديس في ديره، دير القديس أنطونيوس ناحية البحر الأحمر، حينما توفى هناك عام 1967.

كثير من القديسين القدامى هم شهداء، فقد عانت الكنيسة القبطية اضطهادا إبان حكم ثلاثة من أباطرة الرومان: طيكيوس (249 - 251) وديكولاتينيوس (285 - 305) وجوليان المرتد(361 - 363) وُسمى هذا العصر " عصر الشهداء " بداية من 29 أغسطس عام 248 ميلادية. وكقاعدة فإن الاستشهاد في الكنيسة القبطية كان تطوعيا، حيث يعترف القديس بإيمانه المسيحي أمام الحاكم الروماني، وبهذا يتعرض للتعذيب المفضي للموت. في إسنا يوجد ضريح " الفلاحون الثلاثة ". هذا الاستشهاد حدث في اليوم الحادي عشر من شهر توت القبطي في العام الثاني (285) حينما أعدم الحاكم الروماني إيرانيوس مئة وستين ألفا من المسيحيين خلال يوم واحد في المدينة، تنفيذا لتعليمات من الإمبراطور ديكولاتيان. وأصاب الإعياء الحاكم وجنوده من كثرة القتل وأقسموا أن لا يستخدموا سيوفهم مرة أخرى، في تلك اللحظة كان الفلاحون الثلاثة في طريق عودتهم من حقولهم، وحينما وصلوا المدينة وعرفوا بنبأ المذبحة، طالبوا الحاكم أن يضمهم إلى زمرة الشهداء أيضا، لكن الجنود حافظوا على قسمهم. في النهاية قاموا بذبحهم بالفؤوس العائدة مع الفلاحين.

فى أثناء القرن التاسع عشر ظهرت رؤيا لواحد من سكان إسنا، رأى نفسه يحفر لاستخراج عظام الفلاحين الثلاثة، ويبني

لهم ضريحا. حصل على تصريح من حاكم المدينة الذي لم يكن متحمسا لذلك في البداية. لكنه حلم حلما هو الآخر أيضا. عثر الشخص الأول على عظام الفلاحين الثلاثة، وبنى ضريحا لهم.

وفي الثلاثينيات قررت بلدية المدينة توسيع الطريق المقام فيه الضريح وبالتالي هدمه، لكن حارس الضريح حلم حلما، تراءى له واحد من الفلاحين الثلاثة، وأمره أن يحفر في أرض الضريح في مكان حدده، وقد فعل ذلك فورا. في الصباح وجد الناس جسد الفلاح الشهيد هناك. تم إلغاء توسيع الطريق، زعم الحارس الحالي للضريح وهو يمتلك - أيضا - دكانا صغيرا بجوار الضريح، أن جدته هي التي وجدت الجسد سليما لم تعتوره عوامل الزمن.

كتب السيد لاسي أوليري في كتابه "قديسون من مصر" (متعلق فقط بالمسيحيين) يوضح مبدأ تبجيل القديسين فقال: "بينما أصبح الاضطهاد جزءا من الماضي؛ فإن تقديس الشهداء اتخذ شكلا قويا من خلال إحياء الموالد المرتبطة بتواريخ استشهادهم حتى أصبح القديس في منزلة نصف إله أو كأنهم الأبطال الذين يتم تكريمهم في عصور الوثنية".

وفي مصر تطورت منزلة القديسين خلال القرن الخامس، التي انتقدها بشدة شنودة الإصلاحي الكبير، وبقراءة ما كتبه شنودة - سابقا - يظهر لنا أن كل قرية أصبح لها ضريح خاص بشهيدها الذي تقدسه. يضم الضريح عظام شخص ميت مجهول الاسم، تم استخلاصها من القبر واعتبرت بقايا مقدسة لشهيد، ويتم ذلك دون وجود دليل موثوق به بأن هذه البقايا راجعة حقا لشخص مسيحي. هكذا يتم تكريمهم تحت أسماء خيالية.

يُجلب المرضى إلى الضريح للحصول على الشفاء. ومن حرفية كلمات شنودة نعرف كيف أن القرويين المسيحيين، يخترعون قديسين، لكي يبنوا أضرحة لعظام استخرجوها من باطن الأرض واعتبروها عائدة لشهداء. ونرى أيضا أن هذه العمليات كان يُنظر لها بقدر كبير من عدم الرضا من جهات كهنوتية مستنيرة. في معظم الحالات فإن التعرف على هذه العظام أو على الشهيد تكون راجعة إلى حلم أو رؤيا، يزعمها كاهن أو راهب أو مؤمن خارج سلك الكهنوت، لكنهم أشخاص ليسوا بعيدين عن حضن الكنيسة المصرية.

لكن النقد لم يؤثر كثيرا أو قليلا في الإيمان الشعبي أيامها، وواصلت القرى إقامة الأضرحة للشهداء كما يحدث الآن في القرى التي تقيم الأضرحة للأولياء من المسلمين، أو كما في العصور السابقة حينما كانت الأضرحة تقام في عصور الوثنية. هذه الأماكن المقدسة كانت مزدحمة ومستمرة في وجودها بشكل أو بآخر. فبينما كان المرضى يُجلبون للمثول أمام الآلهة، جلبوهم أيضا في ضريح الشهيد القديس أو ضريح الشيخ الولي. هذا الوضع يغري بقوة في إيجاد التشابه بين الإله والقديس والولي، لكن حينما تتم دراسة هذه التقاليد بشكل تفصيلي دقيق، فإننا نستخلص أن التفسير السابق متعنت و ينتج بالتالي نظريات خطرة لا يمكن إثباتها بشكل نهائي. إن النظرية التي تقول بأن الشهيد القديس المسيحي احتل مكان الإله وأن الشيخ الولي المسلم احتل مكان القديس، هي نظرية غير صائبة. فالحياة اليومية ووقائع استشهاد القديس المسيحي هي غالبا متخيلة ولا تتقاطع مع عصر ما قبل المسيحية لديانات مرتبطة بتلك الآلهة، ولا مع تلك الديانة التي عاشها ويعيشها الولي والشيخ المسلم. فكل منهم ينتمي إلى جماعته الثقافية، وأية محاولات للتماهي بينهم لن تنجح.

حياة وموت الشهيد المسيحي تنتمي إلى عالم الإغريق. هذا العالم لا علاقة له مطلقا بعالم مصر القديمة، أما عالم الشيخ الولي فإنه ينتمي إلى ثقافة "ساميّة"؛ فهو قد يحل محل القديس المسيحي لكنه لا يمثله. هذه الشخصيات المخيلة، تبدو مثل عرائس ميكانيكية لا تحمل أية صفات شخصية خاصة. إن الولي والقديس نتاج خاص لثقافة معينة لها رموزها الدينية من عصر الوثنية. هذه الثقافة مسيحية كانت أو إسلامية.

القديسون والأولياء ينتمون إلى طبقتهم المحددة وإلى ثقافتهم المرتبطة بها، لذا يتم التواصل - فقط - في المكان المخصص لذلك، وفي طقوس الاحتفال وفي توارد الحكايات عن القيام بالمعجزات.

بلى، أزاح الشهيد المسيحي الإله الوثني أو احتل مكانه، لكن حينما يرغب الناس في السماع إلى تواريخ ومعاناة شهدائهم، فهم يشترون تاريخا معدا وجاهزا من المحلات المتخصصة لذلك. تجدها؛ غالبا، في الإسكندرية، حيث تم إنتاج تواريخ كهذه تحت تأثير الثقافة اليونانية. هذه تواريخ لأشخاص، إنها إعادة إنتاج للفكر الإغريقي، على الرغم من وجود بعض العناصر المصرية لكنها متداخلة مع وسائط إغريقية.

في الهند، نجد أن عناصر بعينها تنتقل من ديانة لأخرى، أما هنا في مصر، فعلى الرغم من أن الأولياء المسلمين لم يحتلوا تماما محل الآلهة الهندوس في أنشطة تتعلق بالحفاظ على أو وسلامة أشياء مثل الخصوبة أو محاربة الأمراض، نجد تماثلا في بعض الشعائر الدينية الهندوسية ونظيرتها الإسلامية.

وفي مصر يوجد أعداد قليلة من "الشهداء الجدد" (المسيحيين) بالإضافة إلى القدامى، أولئك الذين استشهدوا على أيدي المسلمين الفاتحين بعد دخولهم مصر عام 640 ميلادية، و عموما لم يكن هناك اضطهاد منظم أو متواصل ضد مسيحيي مصر الذين لم تكن معاملتهم سيئة تحت الحكم العربي. فقد تولوا العديد من الوظائف العامة لسنوات طويلة بعد الغزو، لكن الردة عن الدين الإسلامي من مسيحي أو من أية ديانة أخرى؛ كانت عقوبتها الموت، طبقا لما يقوله البعض في تفسيره للشريعة.

النوع الثاني من القديسين هم الرهبان المقدسون. ففي السماء تكون منزلتهم مباشرة بعد الشهداء، كما أوضح لي الأب صموئيل مسئول المكتبة في دير القديس أنطونيوس، إنهم الذين آمنوا بالسيدة العذراء (فالمسيح في الكنيسة القبطية الشرقية بمثابة الله نفسه) كالنجوم في السماء، لكن بعض النجوم أكثر لمعانا من غيرها. ومعظم القديسين المتأخرين ينتمون إلى هذه الطائفة، كما أن بعض القديسين الأوائل كانوا رهبانا مثل القديس أنطونيوس والقديس بولا.

تأسست الأديرة المصرية وتطورت في القرنين الثالث والرابع بالقرب من البحر الأحمر (دير القديس أنطونيوس والقديس بولا)، ثم بعد ذلك بالقرب من الأقصر وأخميم (القديس باخوم والقديس شنودة) وفي صحراء وادي النطرون، في منتصف المسافة تقريبا بين القاهرة والإسكندرية (دير القديس مكاريوس)، وانتشرت الأديرة حتى وصلت إلى إسبانيا وإيرلندا.

الرهبان المقدسون يضمون في جماعتهم الباباوات (اختيار الباباوات يكون فقط من بين الرهبان في الكنيسة القبطية) و"السائحين "(*) كذا قلة من النساء اللاتي استطعن البقاء في الأديرة لسنوات طويلة.

(*) القديس السائح : تطلق على الشخص الذى يتجول فى الأرض عبر الزمن القصير، أو فى طرفة عين من مكان لآخر يبتعد جغرافيا آلاف الكيلو مترات. (المترجم)

يُعتبر البابا كيرلس السادس، من أكثر القديسين المحدثين شهرة، وقد يكون من أكثر القديسين - في القرن العشرين - الذين يتقرّب إليهم المؤمنون. ففي الأديرة وخاصة في مواسم الموالد والأعياد، تمتلئ محلات الهدايا بتذكارات له، من صور موضوعة في أُطر، وأيقونات، وخواتم، وحلي تعلق على الجيد، وساعات. صوره تجدها على ترامس لحفظ الشاي أو الماء البارد. وقد صدر أحد عشر كتابا تتضمن أعماله العجائبية، وواحد من هذه الكتب تمت ترجمته إلى الإنجليزية، ويقول الكتاب إن المعجزات التي قام بها البابا، كان ينجزها بنفسه أحيانا، وأحيانا أخرى كان يبعث بالقديس مينا (العجائبي حسب لقبه) الذي توفى منذ حوالي ألف وستمائة عام مضت لإتمام المعجزة. حيث إن البابا كيرلس، كان يدعى، حينما انخرط في سلك الرهبنة " الأب ميناس " أو مينا بالغة العربية. ويقال إن البابا أقام علاقة خاصة مع القديس مينا(راعيه) آنذاك. وأنا أرى أن البابا كيرلس حظي بذات الصفات نفسها التي حظي بها الشيخ أحمد رضوان وهي " التبصر والبصيرة " فمعظم معجزاته - مثلها مثل معجزات ذلك الولي المسلم- كانت ذات طبيعة عملية. وبالطبع ممتزجة ببعض التفاصيل الخاصة بالديانة المسيحية، مثل المسح بالزيت المقدس(*) والرشم(**) بالصليب وتناول القربان (***)

دُفن البابا كيرلس في جبانة دير القديس مينا (أبو مينا) وهو الدير الذي أمر البابا بترميمه إبان جلوسه على كرسي البابوية، في الفترة ما بين 1971 و 1995 ويؤم الدير والضريح أعداد كبيرة من الحجاج أيام الجمع والآحاد. ويُستخدم القبر الرخامي المدفون فيه البابا، والذي يصل إلى منتصف جسد الواقفين بمواجهته ، كطاولة لكتابة المظالم والطلبات المقدمة له.

(*) المسح بالزيت المقدس طقس يهودي ذكر كثيرا في التوراة ؛ حيث يمسح النبي شخصا ما ويكرسه للرب . ومن المعروف ان لفظة " مسيح " قد اشتقت من هنا حيث يقال عنه " مسيح الرب". (المترجم)

(**) رشم الصليب (بحرف الشين) تقليد أرثوذكسي وهو أن يقوم الشخص بوضع علامة الصليب بأصابعه على صدره وقلبه، أو أن يقوم الكاهن أو البابا بفعل هذه العلامة بواسطة الصليب على جماهير عريضة أو على شخص بعينه. (المترجم)

(***) القربان : طقس مسيحي له علاقة بالعشاء الأخير للمسيح مع تلاميذه قبل تسليمه للصلب كما تقول الأناجيل. وهو الخبز الذي اعطاه المسيح لتلاميذه قائلا: "هذا هو جسدي". (المترجم)

كتابة الطلبات هي عادة متبعة وقديمة عند الأقباط، يضعونها تحت أطر الأيقونات أو في شقوق المغارات التي كان يقيم فيها القديسون يتبتلون، كما في دير القديس أنطونيوس. أو أي مكان له علاقة بالقديس المعنيّ. والطلبات عبارة عن أوراق ملفوفة بإتقان، تحمل النص التقليدي " تذكر يا رب عبدك (أو عبدتك) فلان " أو بها طلبات محددة، كما قال لي راهب من دير القديس أنطونيوس، فإن الطلبات تتركز في رجاء للقديس أن يساعدهم في قضايا أمام المحاكم أو مسائل الزواج والطلاق والأمراض.

أما العبارات التالية فهي مقتطفة من الكتيب المشار إليه سابقا :

" **شهادة عزمي زكي** : في عام 1961 كنت أعاني من صداع مزمن بينما كنت أعمل في مركز بريد دشنا، وتزايد الصداع إلى درجة أني فقدت بصرى تماما. سافرت إلى القاهرة في الأيام الأخيرة للصوم الكبير، كان أخصائيو طب العيون من ذوي الخبرة قد فحصوني وأعلنوا يأسهم من استرجاع بصري. كان أملي أيامها أن ألتقي قداسة البابا كيرلس السادس لما سمعته عن كراماته. حقق الله أمنيتي، والتقيت البابا في الهيكل(*) بعد الصلاة. وقبل أن أخبره بمشكلة عيني، قام هو بمباركة عيني برشم علامة الصليب عليها. حينئذ طلبت منه أن يصلي لي، لكي أنال الشفاء، فقال: " يسوع المسيح سوف ينير عينيك" ورجعت إلى البيت وبعد يوم واحد شعرت بتحسن ملموس في رؤيتي، وبالتدريج تحسنت أكثر فأكثر حتى رجع لي بصري كما كان سابقا" .

" ويقول السيد **فليبوس القمص يوحنا** إنه كان يعاني من الشلل وظل في المستشفى طوال خمسة أشهر. كان نسيبه السيد عزيز زكي يتردد على البابا كيرلس وطلب منه أن يصلي من أجل شفاء السيد فليبوس. وذات مرة أثناء القداس فاجأ البابا السيد

(*) الهيكل هو المحراب الداخلي في الكنيسة. بمثابة قدس القداس يفتح مرة واحدة في اليوم. (المترجم)

عزيز بأن سأله " كيف حال نسيبك ؟ سوف أصلي له الليلة " وفي تلك الليلة وفى أثناء نوم السيد فليبوس رأى شابا في ثياب بيضاء يقف مقابله. في الصباح أخبر نسيبه بما قاله البابا في اليوم السابق. حكى الآخر حلمه. تيقنا أن الشاب في الثياب البيضاء لم يكن سوى القديس مينا. بعد ذلك بدأت الحياة تدب في جسده المشلول حتى شُفي تماما ".

كما يقوم البابا بالمساعدة في الامتحانات :

" **شهادة السيد شريف ميخائيل** وهو طالب في كلية الهندسة بالإسكندرية : ذهبت مع والدي إلى البابا كيرلس السادس لنحصل على بركاته. اقترحت والدتي أن أحمل معي بعض الكتب لكي يفتحها البابا لي. كنت أستعد لامتحان الثانوية العامة آنذاك، وأيد والدي اقتراحها. فحملت الكتب معي على الرغم من أني لم أكن متحمسا لفكرة استخدام البابا للحصول على مكاسب دنيوية. تمكنا من لقاء البابا رغم الزحام الشديد حوله. وبينما كان يدعو لي، لمح الكتب وسألني عنها، أجابه والدي بأنها الكتب التي سأُمتحن فيها، وترجى قداسته أن يفتحها لي، وحينما انتهى قداسته من دعائه لي، وأعطاني القربان المقدس، قال لي: "حينما تصل البيت افتح الكتب وسيتمجد اسم الرب "، وفي البيت فتحت الكتب ثلاث مرات مرة باسم الأب ومرة باسم الابن ومرة باسم الروح القدس، وحينما بدأت الامتحانات وجدت الأسئلة تغطي الأجزاء التي انفتحت لي من الكتب. لقد تمجد اسم الرب كما قال البابا ونجحت حاصلا على تقديرات ممتازة."

ومثله مثل الشيخ رضوان، فإن البابا كيرلس يمكنه أن يحس بعدم طهارة شخص ما :

"يحكي أحد الكهنة كيف أنه كان مسئولا عن خدمة الكنيسة في السجون. طلب منه مسجون أن يسمح له بالمناولة، وفي اليوم المحدد ذهب الكاهن ليستأذن من البابا أن يسمح للمسجون بالمناولة، لكن البابا أجابه: " لا حاجة لذلك، لقد تناول إفطاره. ها هو يأكل! "(من المفترض أن تتم المناولة على معدة خالية) وحينما ذهب الكاهن إلى السجن، أتى السجين إليه معتذرا بأنه ليس مستعدا للمناولة لأنه أحس بالجوع فتناول إفطاره "

حينما كان البابا لا يزال راهبا باسم الأب مينا، كان بمقدوره طرد الأرواح النجسة والشياطين.

" **شهادة من السيد حبيب** : فى أثناء صيام عيد الفصح، ذهب إلى الصلاة في الكنيسة التي يخدم فيها الأب مينا وهي كنيسة القديس ميناس في مصر القديمة. هناك وجد الناس يتحلقون حول شاب ملقى على الأرض وأربعة رجال يمسكون به، بينما كان القديس (البابا كيرلس) يمسك بصليب ويوجهه إلى الشاب صائحا " اتركه !" حينئذ قال الشاب: "سأخرج منه من خلال عينيه!" لكن القديس قال له بحزم: "اخرج من إصبع القدم و إلا فإن القديس ميناس سيعاقبك"، لكن الشاب غضب جدا وأخذ القديس يزجره. بعد وقت خرجت الروح الشريرة من إصبع القدم ".

يعتقد المسيحيون بتلبس البشر للأرواح الشريرة (العفاريت والأرواح النجسة) نتيجة أخطاء ارتكبت أثناء العماد(*)، لكن الطريقة التي يتم بها طرد الروح الشريرة والتي تتضمن مفاوضات معها، هي نفس الطريقة التي يستخدمها المسلمون. من المهم للغاية أن تترك الروح الشريرة جسد الملبوس بها من خلال إصبع القدم أو إصبع اليد؛ لأنها لو خرجت من العين فإن الشخص المعنيّ سيصبح أعمى، وبدلا من استخدام الصليب، فإن المسلمين المتخصصين في طرد الأرواح الشريرة والعفاريت مثل عبد الرشيد الذي يعمل مع الشيخ زاهر يتلو "حزب الرفاعي ".

وأخيرا، فإن السيد ف.س والذي يحتفظ ببعض شعرات من شعر البابا كيرلس، الذي سقط من رأسه بينما كان يمشطه، يحكي لنا كيف أن الشعر حتى بعد وفاة البابا لا يزال يحتفظ بقوته العجائبية في شفاء زوجته التي كانت تعاني من آلام متواصلة وحادة في ذراعها الأيسر، لكنها منذ أن وضع شعرة منه في محفظته، لاحظ التحسن الواضح في دخله؛ فمثلا استعاد عملا إضافيا كان قد تركه من قبل وبثلاثة أضعاف المرتب السابق.

(*) العماد هو طقس ماقبل مسيحي حيث كان يوحنا الملقب المعمدان يعمد الناس في نهر الأردن، ثم جاء المسيح إليه طالبا أن يعمده. منذ ذلك الوقت أصبح العماد طقسا مسيحيا كبداية لقبول الشخص المتعمد لعضوية الكنيسة . (المترجم)

إن الاستعدادات لتلقي بقايا القديسين والاحتفاظ بها سواء كانت شعرا أو عظاما، لهي طقس مسيحي أصيل. ولن نجد هذا إطلاقا بين المسلمين، حتى أولئك الذين ينزلون المشايخ منزلة أولياء الله الصالحين. فهم لن يقوموا بأخذ أي شيء من أجسادهم، وبالطبع لن يستخدموها بالطرق التي يستخدمها بها المسيحيون. البقايا التي يستخدمها المسيحيون تكون ملفوفة في أسطوانة خشبية مغطاة بالثياب وتمرر على الأجزاء المطلوب شفاؤها في جسد المرضى. يكون ذلك في ثلاثة أيام جُمع أو آحاد متصلة. العديد من طالبي العلاج بهذه الطريقة يتجمعون في كنيسة دير راهبات الأمير تادرس في القاهرة وأماكن أخرى متعددة، يقْدُم كثير من المسلمين إلى هذه الأماكن المسيحية، ويطلبون من الكهنة المسيحيين أن يطردوا من أجسادهم الأرواح الشريرة، كما تقصد النسوة المسيحيات أضرحة إسلامية طلبا للحمل.

وفي هذا الصدد نجد أن ما كتبه لين(*) منذ مئة وخمسين سنة، لا يزال واقعا معاشا الآن، كتب : "من الملاحظ أن سكان مصر والبلاد الأخرى من مسلمي ومسيحيي ويهود الشرق الأوسط، يتبادلون الاعتقاد بأساطير بعضهم البعض، هذا في الوقت الذي تستنكر كل ملة إيمان الملة الأخرى؛ ففي حالة المرض نجد أن الكثير من المسلمين يقصدون الكهنة المسيحيين واليهود، ويطلبون منهم أن يصلُّوا من أجلهم، كما نجد أن المسيحيين واليهود يتوجهون بنفس التوجه للشيوخ المسلمين يطلبون تدخل أوليائهم الصالحين؛ حيث يسألونهم عن المستقبل أو أشياء مسروقة أو ضائعة ويقدمون لهم هدايا مختلفة من النقود وغيرها ".

ويؤكد الأب ماكسيموس، وهو كاتب سيرة الأب يوستوس، أن العديد من المسلمين يتوسلون إلى القديسين المسيحيين ويقصدون كهنتهم طلبا للعون.

والأب يوستوس هو واحد من الرهبان المقدسين الذي لم يصعد السلم الكهنوتي الرسمي، لكنه نال نفوذا واسعا كقديس فى أثناء حياته. وهو من دير القديس أنطونيوس وعاش في غرفة (صومعة) منعزلة من عام 1942 حتى عام 1979 متخذا حياة

(*) هو إدوارد لين، الرحالة والمستشرق البريطاني الذي زار مصر في منتصف القرن التاسع عشر وكتب مؤلفه الشهير "عادات المصريين في مصر الحديثة ". (المترجم)

التبتل و التعبد؛ حيث كان يقسم وقته بين صومعته، وبين الصلاة في الكنيسة. نادرا ما ينطق بكلمة، إلا إذا كان يقرأ في الكتاب المقدس. لم يخلع ثيابه ولم يغسلها مطلقا. الشيء الوحيد الذي كان يفعله في هذا الأمر، ونادرا ما كان يفعله، هو الغطس في خزان المياه بثيابه، ليظل في الشمس بعد ذلك حتى تجف، أو كان يرتدي ثيابا جديدة، يضعها فوق القديمة، حين يحصل عليها من الدير. كتب مؤرخ سيرة حياته: " قدم القديس لنا مثالا، بأن حاجة الجسد للثياب يجب أن لا تغطى على محبتنا لله أو تكريس حياتنا له، وأن الرب لن يحاسبنا على إهمالنا ارتداء الثياب النظيفة، لكنه سيحاسبنا على عدم طهارة قلوبنا، لأن الله ينظر إلى القلب. " كان القديس يقدم نصيبه من اللحوم للقطة. في البداية نام القديس فوق الأشجار أو على الأرض ثم فوق مقعد وهو جالس"، كان يوستوس يتلو أحيانا فقرات من الكتاب المقدس كنصائح، حينما يخرج عن صمته. أحيانا يشاهد بعض زوار الدير ضوءا باهرا يشع من صومعته حين يدخلها، أما بعد وفاته فقد ظهر عمود نور في مقبرة الدير حيث دُفن.

تروى عدة روايات عن الأعمال العجائبية للأب يوستوس، لكن الأب ماكسيموس لا يروى سوى القليل منها، تلك التي تم الإجماع عليها؛ فالدير لم يسجل معجزاته. وتفسير الأب ماكسيموس لهذا، أن الرهبان لم يظهروا اهتماما بها.

ويبدو أن الأب يوستوس وُجد في أماكن ضيافة زوار الدير دون أن يمر من الباب الذي كان مغلقا منذ حلول الليل. أما الجندي الذي سب الراهب لأنه لم يرد تحيته فقد وجد خزان المياه التابع للدير فارغا، ولم ترجع المياه إلا بعد أن قدم اعتذاراته. قام الأب يوستوس بشفاء طفل لدغته عقرب بأن رش على مكان اللدغة ماء كان قد صلى هو عليه، كما كان على علم بشكل ما بالزيارة المنتظرة لراهب مقدس آخر، هو الأب عبد المسيح حبشي، الذي كان يقيم في كهف في وادي النطرون، وحينما التقيا تصرف الراهبان كأنهما يعرفان بعضيهما البعض من زمن طويل. على الرغم من أن هذه أول زيارة للأب عبد المسيح للدير. تماما مثل ما حدث للقديس أنطونيوس حينما زار القديس بولا قبيل وفاة الأخير بزمن قصير.

ويوجد في الكنيسة القبطية قديسوها العرايا كما يوجد مثيلهم من المسلمين الأولياء الصالحين. مثل برسوم العريان الذي كان يعيش حوالي العام ألف وثلاثمائة ميلادية وقضى خمسا وعشرين سنة مع ثعبان ، عاش معه في كهف واحد تحت كنيسة أبو سيفين في القاهرة، وكذا الناسك (أبو نوفر) والذي يُرسم في أيقونات دون أن يغطي جسده شيء، سوى لحيته الطويلة، وثمة بئر مسماة على اسمه تخليدا له في دير راهبات الأمير تادرس.

قديس مسيحي آخر مشهور من القرن العشرين والذي توفى عام 1969 هو عبد المسيح المنهري، والذي بعد قضاء فترة في دير القديس مكاريوس كراهب، خدم ككاهن في قرية المنهارية شمالي المنيا حيث دفن هناك أيضا. إن الروايات عن معجزات الأب عبد المسيح لها نكهة الفلاحين، فنجد في واحدة منها أنه أعاد للحياة إوزة ماتت كانت تعود لامرأة فقيرة.

واحد من القديسين المعاصرين هو الراهب المقدس فانوس الذي يقيم في دير القديس بولا. فالراهب الذي ولد في صعيد مصر في بداية الثلاثينيات، بدأ في إظهار نعمة التبصر والإتيان بالمعجزات حينما بلغ الخمسين، وانتشرت سمعته مما سبب مشكلة للدير. لذا تم نقله إلى دير آخر في منطقة بوش القريبة من بني سويف حيث تم إلزامه بالبقاء في صومعته لا يبرحها إلا نادرا. كما أنه من النادر أن يزوره أحد. ومن الواضح أنه غير محبوب من الكهنة والرهبان المحليين، فلا توجد صور له، معروضة للبيع في متجر الدير. وهذا يشكل حالة استثنائية؛ فصوره تباع في أماكن أخرى ويتعاملون معها باعتبارها جالبة للبركات. يزعم أناس أنهم تلقوا زيارات من فانوس على الرغم من أنه لم يبرح الدير. جاء لمساعدتهم في حل مشاكلهم.

في العالم الخفي للأولياء الصالحين المسلمين، الأحياء منهم والأموات، نجد أنهم يعرفون بعضهم بعضا لكن يجهلهم الآخرون. هذا العالم، نجده منعكسا في حياة القديسين الجوالين المسيحيين. ويعتقد البعض أن هؤلاء الجوالين قد وصلوا إلى درجة رفيعة من السمو الروحي تؤهلهم أن يتجولوا في العالم كنساك ومتبتلين. إن في استطاعتهم الإقامة في الصحراء، لكن ذلك ليس فرضا لازما عليهم، كما باستطاعتهم التجول من مكان لآخر مفتوحا كان أو مغلقا. وغالبا ما يقْدمون لإنقاذ الناس.

وفي هذا المجال نجد أن البابا كيرلس والراهب يوستوس وكذا فانوس، يُعتبرون من الجوالين. وعموما كما يقول الأب ماكسيموس إن كل قديس هو سائح جوال لكن ليس جميع الرهبان المقدسين من الجوالين. يمكن للجوال أن يحضر الخدمة في الهيكل في أية كنيسة دون أن يراه أحد. فالهيكل - عادة - يُفتح مرة واحدة في اليوم لاستخدامه. ويترك الأقباط المصلون بعض الماء هناك بعد الخدمة علامة منهم ترمز للقديس الجوال أن يذهب إلى مكان آخر.

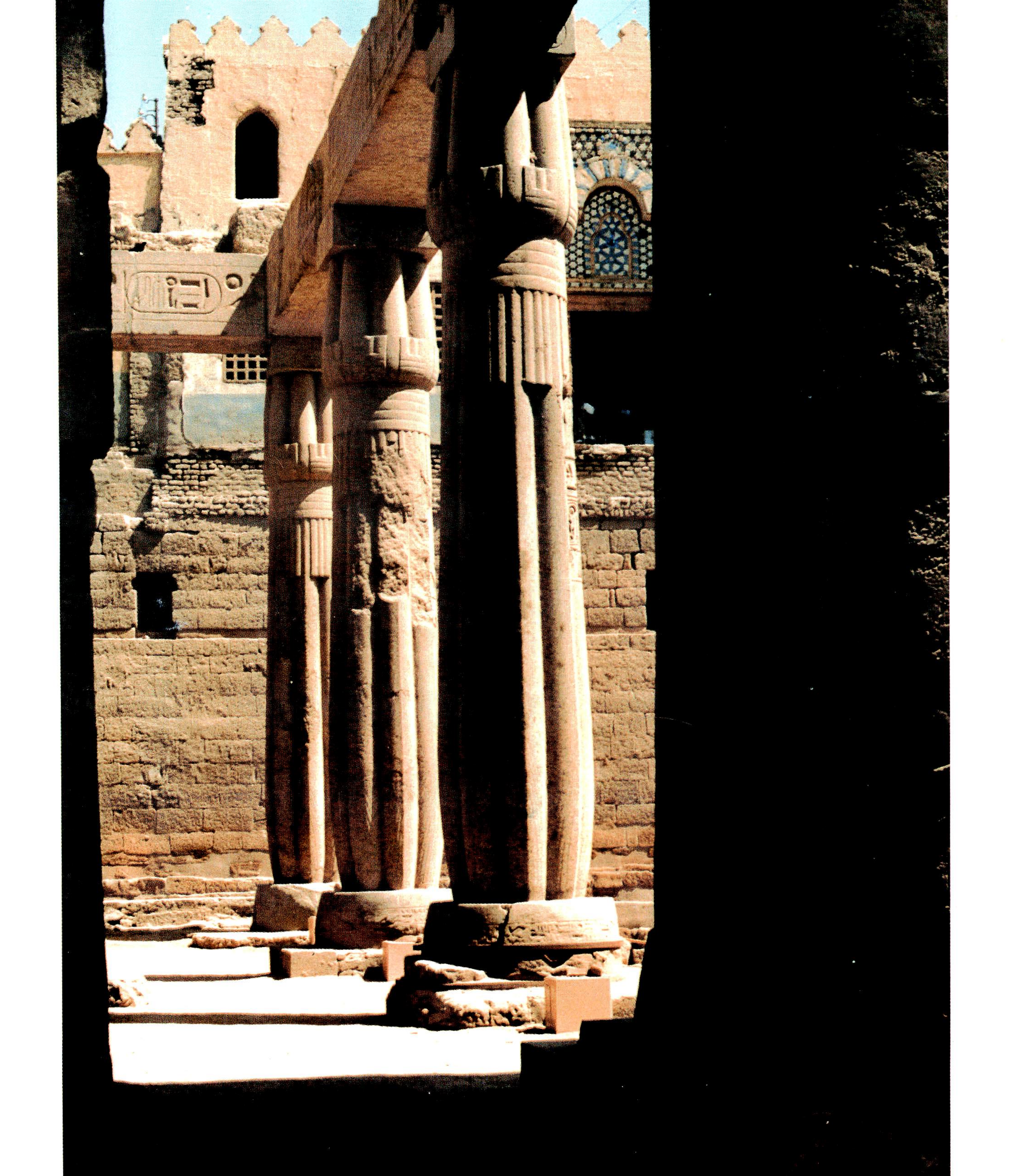
ومن النادر للغاية أن يتم اتصال ما بين قديس غير جوال و هؤلاء القديسين. يقول الأب ماكسيموس إنه قد تم استثناء هذه القاعدة للأب بيشوي في الإسكندرية؛ حيث كان يشاهد ولسنوات طويلة رجلا مسنا يأتي ليتناول القربان المقدس في كنيسته في أمسية الجمعة الحزينة(*) لقد سأله عن من يكون، لكن الرجل رفض الإفصاح. قال إنه ليس بإمكانه القول. أصر الأب بيشوي على المعرفة، وعده الرجل أن يخبره في العام المقبل، وحينما انقضى العام طلب الغريب من الأب بيشوي أن يقله في سيارته إلى طريق القاهرة الصحراوي، وهناك خرج كلاهما من السيارة وطارا في الفضاء. كان بيشوي متشبثا بثياب الرجل الآخر. وصلا إلى حديقة يجلس فيها رجال مسنون. بعد وقت وجد الأب بيشوي نفسه يجلس بمفرده في سيارته على جانب الطريق الصحراوي.

وحسبما أعلم فثمة ولي يهودي وحيد مدفون في مصر. إنه " تصديك ياكوف أبو كاتزيره"، ويقال له بالعربية أبو حصيرة. هذه الصفة التي تلحق به ترجع إلى كرامة قام بها من فوق حصيرته. يقال إنه كان يحلق بها في الفضاء طبقا لرواية البعض، أو يطير بها بمحاذاة البحر طبقا لرواية آخرين. وُلد في المغرب وعاش ثلاثين سنة في دمنهور، وحينما توفى عام 1885 نسبت له كرامات مختلفة منها درء الدعاء الذي يسبب الضرر، وتسهيل الحمل للعاقرات.

(*) تسمى كذلك لأنها الجمعة التي تم فيها صلب المسيح طبقا للعقيدة المسيحية، وأحيانا تسمى الجمعة الكبيرة. (المترجم)


ישיבת נתיב השבים
המקובל האלקי בוצינא דנהורא כקשת כמוהר"ר יעקב אבוחצירא זצוק"ל זיע"א

أبو حصيرة



الاستمرارية: يوجد في منتصف معبد آمون بالأقصر، مسجد وضريح أبو الحجاج، وهو ولي من القرن الثالث عشر، مولود في المغرب ومعاصر لعبد الرحيم القناوي. الجزء المطمور من المعبد لم يتعرض للحفر والتنقيب احتراما للولي ولمريديه.

أثناء المولد وبعد صلاة الظهر، وفي اليوم الذي يلي الليلة الكبيرة، يتحرك موكب تُحمل فيه قوارب ثلاثة. يعتقد العديد من الدارسين لعلوم المصريات، أن هذه العادة ترجع إلى العصور الفرعونية حينما كانت القوارب تُحمل من الكرنك إلى الأقصر.

وبالإضافة إلى القوارب تتحرك الجمال وعليها المحامل محملة بالثياب الجديدة لكسوة قبر أبي الحجاج ووليين آخرين مدفونين في المسجد.



كنيسة الدهرية في منطقة البحيرة وبها قبور تسعة وثلاثين قديسا، ويأملون أن يصل العدد إلى الأربعين لزيادة التبرك بهذا الرقم السحري.

هناك أيضا مقام الشيخ حمودة وسيدي أحمد الزكريا، وأمامها قبر سيدي حنيش الذي يساعد إناث الحيوان على الحمل .

الأكثر غرابة شجرة مقدسة في كنيسة الدهرية تدعى " سيدي قادر " يعلق عليها الناس المصابيح المضيئة كل يوم اثنين وخميس .

يقام المولد بعد جني محصول القطن.



قبر الشيخ محمد الهلالي في إدفينا.

شيخ آخر مدفون تحت الأشجار بالقرب من المقام (يظن البعض أنه لوالد الشيخ الهلالي) وقد جرب الناس أكثر من مرة إقامة ضريح له، لكنهم وجدوا أن المبنى يقع في كل مرة. ويبدو أن الشيخ لا يريد على غير العادة إقامة ضريح له.

قبر لولي مجهول في كنيسة الدهرية وبجواره مقام يرجع لولي اسمه سيدي ناصر. فقد حلمت امرأة عجوز أنها طلب منها إقامة مقام له، وفي المكان المحدد وجدوا أربعين جمجمة بشرية، وعلى المبنى مكتوب " سنة 1981هذا المقام لسيدي محمود ناصر والشهداء الذين معه ".



قبور لمشايخ بالقرب من "بلاص" ليست بعيدا عن قنا.



ضريح الشيخ هريدي وهو ولي يحوز شهرة واسعة في الصعيد، وضريحه مقام فوق التلال شرقي النيل بين أخميم وأسيوط ومقابل الضريح يوجد قبر ابنه الشيخ حسن.

يأتى المرضى ليقضوا ليلتهم في المقام ليلة الثلاثاء ليستيقظوا وقد نالوا الشفاء، وهناك توجد امرأة عمياء تقوم بجلب الماء للضريح ليلا، وتقطع المسافة المتعرجة المليئة بالصخور والحفر دون أن تتعثر. كان الشيخ هريدي قد فلق الصخر حينما كان هاربا من أعدائه (المسيحيين بدون شك)، وبذلك حظي لنفسه بالولاية . وفي منتصف الطريق المؤدي للقبر يوجد كهف صغير يُسمى " خفير الدرب " حيث لن يستطيع مرتكب للذنوب أن يواصل المرور .

وطبقا لبعض الروايات فإن الشيخ هريدي كان أول من عبر قناة السويس عام 1973 في حرب أكتوبر ضد إسرائيل.



مقام ابو القمصان في القرنة بالقرب من الأقصر، شيد بعد وفاته عام 1979



مقبرة الشيخ عادل في الحوكراب بالقرب من أسوان



قبر أبو حصيرة الولي اليهودي
بالقرب من دمنهور



مقبرة أبو الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية والموجود في وادي حُميصرة الواقع فى أقصى الجنوب الشرقي لمصر. قال لي الشيخ زاهر إن أبا الحسن طلب من الله أن يموت في مكان ليست به ذنوب. وكل عام فى أثناء حجه إلى مكة كان يحمل معه كفنه. معتقدا عن حق ان المكان الذي ليس به ذنوب يكون في الصحراء. عادة ما يكون طريقه عبر قنا، وفي سنة من السنين التقى بسيدة معها ابنها المريض، نذرت السيدة أن تقدم ابنها لأبي الحسن ليخدمه إن من الله عليه بالشفاء. وفي العام التالي كان الصبي قد طرأ عليه تحسن ملحوظ والتحق بالقافلة المتجهة إلى مكة في خدمة الشيخ . وحينما وصلوا وادي حُميصرة ، توفى الصبي فجأة . قام ابو الحسن بتكفين الصبي في كفنه ودفنه. فى اليوم التالي، حينما شعر أبو الحسن بقرب منيته طلب من زوج ابنته، وتلميذه المرسى أبو العباس أن يسلم جثمانه لرجل ملثم ممتط صهوة جواد سوف يظهر له ساعتها. قال له : سيقوم الملثم بتغسيل الجثمان ودفنه وسيغادر عبر تل صعب الانحدار، واشترط على أبي العباس أن لا يتبع الملثم بل يبقى مكانه. و مثلما قال الشاذلي، تماما، حدث كل شيء. لكن أبو العباس تبع الملثم راكب الجواد إلى قمة التل. هناك رأى وجهه ولم يكن سوى وجه ابو الحسن نفسه الذي طلب منه العودة ثم اختفى . لكن الوجه الذي رآه في الحقيقة كان وجه الرسول الذي قدم ليدفن الولي الكبير وليصلي عليه. وهذه الصورة التقطتها من قمة التل الذي حدثت فيها الحكاية، ثمة زفة صغيرة تظهر متجهة الى قبر الشيخ ، ترفع الرايات البيضاء والخضراء والصفراء . يقول المؤمنون الذين يبقون فوق التل بالليل إن بمقدورهم مشاهدة الضوء يشع من قبر الرسول في المدينة المنورة ، الواقعة إلى الشرق من البحر الأحمر.

وبالقرب من الضريح توجد بئر بها مياه مباركة ، وحسب رواية الشيخ زاهر فإن أبو الحسن بصق في البئر ليجعل ماءها صالحا للشرب، كما تقوم المحافظة بنقل خزانات المياه للمحتفلين بالسيارات خلال المولد. تكون ذروة المولد في وقفة عرفات، لكن العديد من المحتفلين يغادرون الوادي ليتمكنوا من ذبح الأضاحي في بيوتهم ومناطق سكناهم .

التاريخ 7 -12- 1407م /3- 8 - 1987



مقام سبعة وسبعين وليا في أسوان. وعلى البعد يمكن رؤية الأحجار التي تركها الزوار ذكرى لزيارتهم.

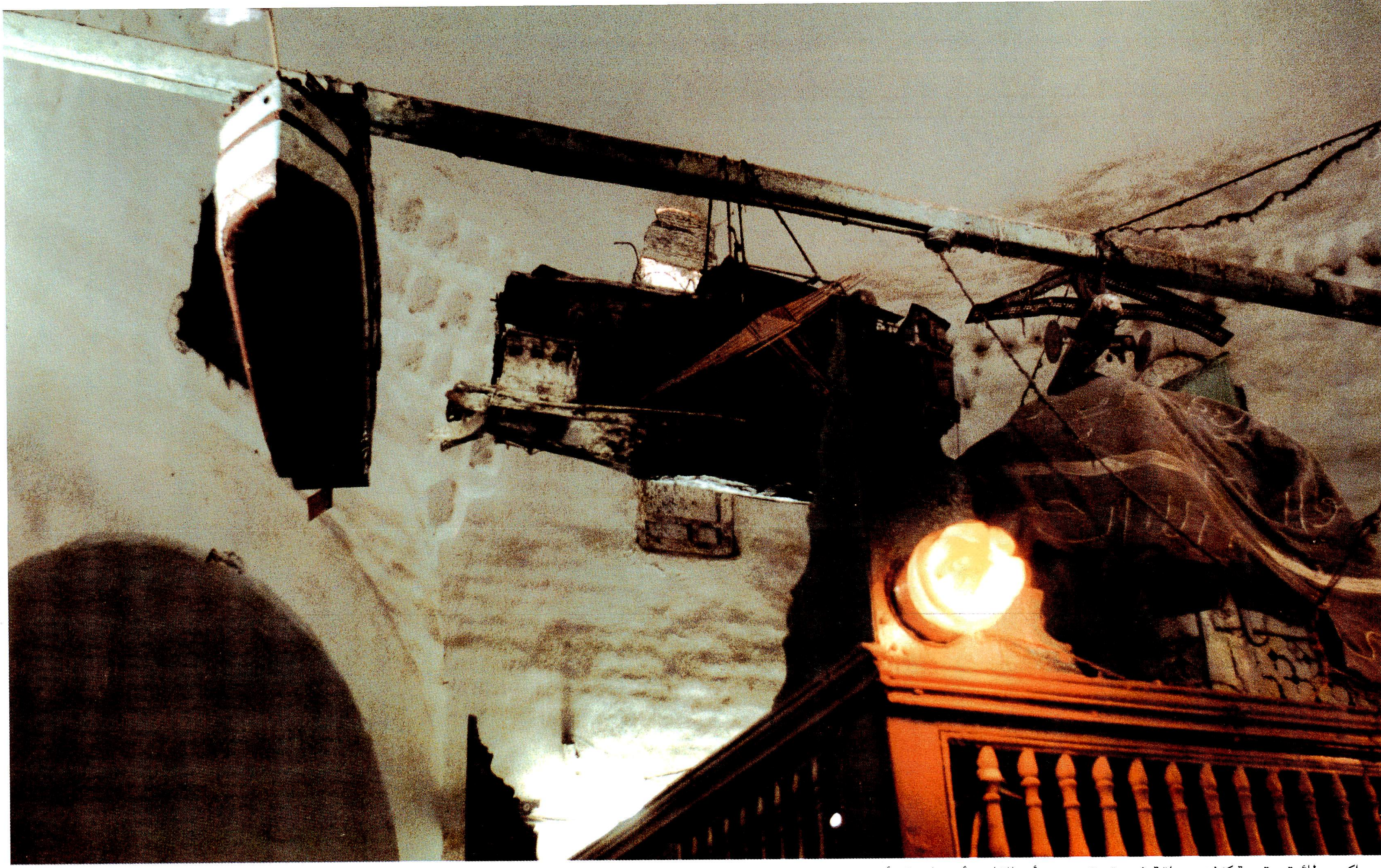


شجرة مباركة متصلة بقبر الشيخ أبو القاسم أبو علي في أخميم . يدق الزوار مسامير كبيرة في الشجرة ويقال إنهم يفعلون هذا ليتخلصوا من ألام الصداع الشديدة .

مقام الشيخ منصور المقام على صخرة في النيل في أسوان حيث عاش متبتلا .
يحضر المتزوجون حديثا إلى الضريح لكي يضمنوا الحمل للزوجات .يحضرون معهم أرزا باللبن يلقونه في النيل ويشعلون الشموع في الضريح.
في المولد يتم دهان الضريح وتوضع راية جديدة خضراء عليها هلال ونجوم وهو العلم المصري قبل ثورة يوليو، كذلك يمكن رؤية هذا العلم في بعض الموالد في الصعيد.

تابوت ومقصورة أبو الحجاج في الأقصر.

تابوت ومقصورة إبراهيم الدسوقي في دسوق.

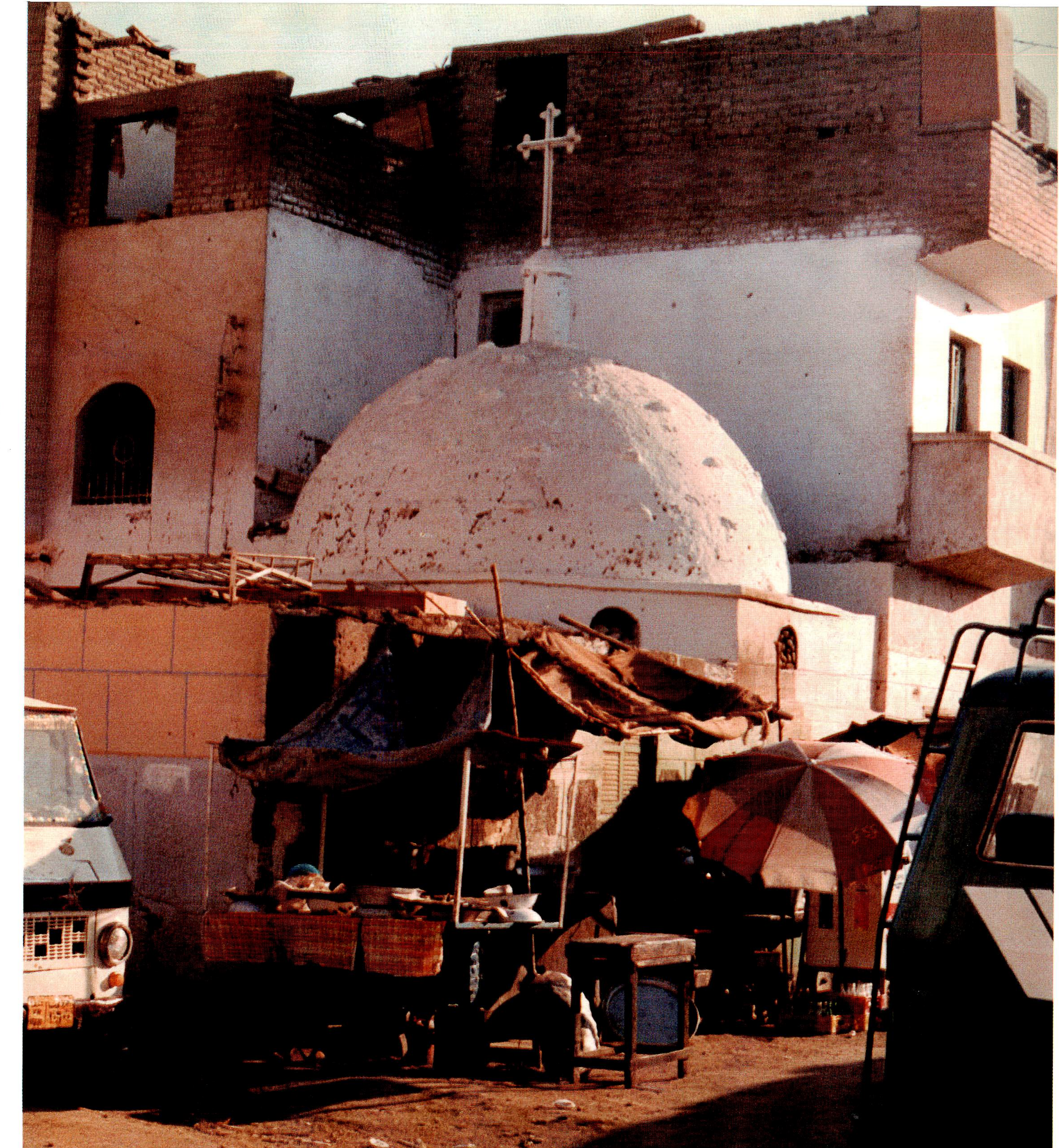


مراكب وطائرة مقدمة كنذور، معلقة في مقبرة سيدي أبو القاسم أبو علي في أخميم .

إن عادة تعليق نماذج القوارب في قبب المساجد قد ندرت الآن. فبالإضافة إلى أخميم رأيت هذه القوارب فقط ، في ضريح الست حورية في بني سويف، ومقبرة الشيخ عويس الموجودة على تل بالقرب من المحاميد . كان من المألوف وضع قوارب مصنوعة من الأوراق في ضريح أبو الحجاج في الأقصر، لكني لم أشاهد أيا منها هناك.

تقول الرواية إن الشيخ أبا القاسم قبل أن يتوفى في سن الخامسة عشر، كانت صلواته مستجابة حينما يصلي من أجل عائلته، خاصة عندما تكون بينهم ، وبين السلطات المحلية مشاكل ما. بعد وفاته شفي الكثير من المرضى خاصة من يطلبه للتخلص من الآم الشقيقة (الصداع النصفي) .

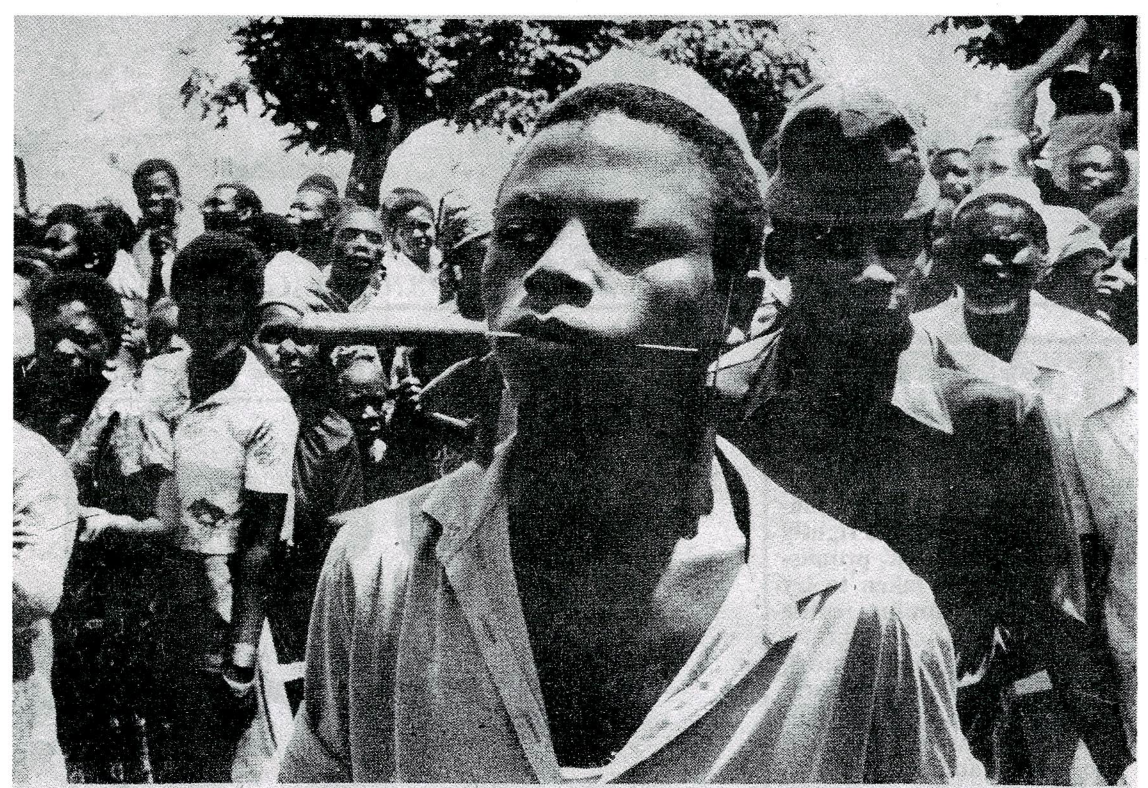
بجوار ضريحه توجد شجرة تطرح ثمار النقب ، يقال انها معمرة من حوالي أربعمائة سنة، يغرز فيها الذين يعانون من ألام الرأس مسامير مع شعرة من شعر رءوسهم.



الفلاحون الثلاثة، مكان حج مقدس للمسيحيين في إسنا .



مدفن الشيخ سليمان، وهو من أولياء العبابدة الذين يقطنون ناحية البحر الأحمر بين منطقتي مرسى علم وبرنيس. قبائل العبابدة لا يتكلمون العربية ، مثلهم مثل قبائل الهدندوة والبشارية، الذين يقيمون في شرقي السودان على شواطئ البحر الأحمر. يضع العبابدة رايات بيض فوق مقابرهم حينما يزورونها، حتى تلك التي لم يدفن الأولياء فيها. كما يتركون فيها سكرا وتمرا، وحمصا، وأعوادا من خشب الصندل كتقدمات. إن عادة وضع راية فوق قبور الأولياء رأيتها أيضا في الواحات البحرية في الصحراء الغربية حيث يتكلم أهلها اللغة العربية .



WHAT a hair-raising traditional dance called ''maulita'' from Angoche in the south of Nampula Province in Mozambique! (Picture by Fernando Lima of AIM)

تعليق الصورة: حينما كنتُ أعمل في "دار السلام" في تنزانيا قصصت هذه الصورة من الصحيفة المحلية. إنها تظهر امتداد الموالد والتصوف حتى شواطئ موزمبيق. أما التعليق الذي نشرته الصحيفة تحت الصورة فهو يقول" يا له من عرض يقف له شعر الرأس في الرقص الذي يطلق عليه "مواليتا" في منطقة أنجوشى جنوبي نام بولا في موزمبيق".

أهل الله

"الحب ديني وإيماني"

ابن عربي

إن الرغبة في الاقتراب من الله لا تكون من خلال التوسل بولي من أولياء الله الصالحين، لكن بالفعل الصالح. إنها القوة الدافعة للمتصوفة أو الدراويش. التصوف أو مذهب الحلول في الإسلام لا يقتصر على الإسلام فقط، مثلما لا يقتصر الإسلام على الاعتقاد بالأولياء أو المعجزات. إن الحب الموجه للمطلق هو ظاهرة في كل الأديان. ونجد أن الشرق الأدنى يمتلك تجربة غنية في كل من المدارس الغنوصية(*) وتلك التنسكية والتقشفية بتطبيقاتها الفكرية في مرحلة ما قبل الإسلام.

ويمكن اكتشاف قدر ملحوظ من التأثيرات المسيحية، وكذا احتمال وجود تأثيرات بوذية وهندية في الفكر التصوفي الإسلامي، لكن الرؤية السائدة في أيامنا هذه أن أصول التصوف تطورت من داخل الإسلام ذاته، وهو تطور مهم أيضا.

في حقبة من الزمن ليست بعيدة، كان المسلمون في غالبيتهم يتبعون مذهبا من المذاهب الصوفية. لكن التصوف الآن أصبح يُنظر إليه باستهانة في بعض البلاد. كما أنه أصبح صفة تلصق حاملها بالماضي، لكن مصر لا تزال تحتضن ملايين من التابعين للطرق الصوفية الذين لا يستنكفون أن يعلنوا عن أنفسهم بكل وضوح.

إن أهل الطرق الصوفية في مصر يعلنون عن وجودهم في الموالد، كما أشرت من قبل في فصل سابق.

ففي مولد السيدة زينب عام 1987 وجدت نفسي بالصدفة مع مجموعة من المتصوفة، في واحد من أروع مساجد القاهرة. مسجد سارغميتش الملحق بمسجد ابن طولون والذي صممه وشيده في القرن الرابع عشر المعماري الذي شيد مسجد

(*) Gnostic الغنوصية هى العلوم الروحانية، وتابعوها هم من المسيحيين الذين يعتقدون أن الخلاص يكون عن طريق المعرفة وليس عن طريق الإيمان. (المترجم)

السلطان حسن. كان فناء المسجد المفتوح قد غطته أقمشة الخيامية كسقف جلست تحته النسوة يطهين الأطعمة ويتسامرن بينما كان الأطفال يمرحون حولهم. في الوسط جلس رجل ضامر الجسد تغطي وجهه لحية قصيرة معمم بعمامة بيضاء ويرتدي ثيابا بيضاء تحيط به مجموعات من الرجال، معظمهم في ثياب بيضاء أيضا. الوقت آنذاك كان حوالي الثالثة بعد الظهر. ثمة رجل مسن سريع الحركة يقوم بتوزيع أكواب الشاي على الجالسين، متحركا بخفة بينهم وبين موقده المشتعل. هؤلاء كانوا جماعة من الرفاعية من قرية في شرقي الدلتا يربط بينهم رابط العهد الذي تعاهدوه مع شيخهم الشيخ زاهر أحمد أبو زغلل، فقد عاهدوه منذ سنوات حينما لم يكن قد بلغ الثلاثين بعد. إنه الآن في السابعة والثلاثين.

على عمود من أعمدة المسجد كانت توجد صورة فوتوغرافية ملصقة عليه لـ "الشيخ الكبير" جد الشيخ زاهر، الشيخ أحمد أبو زغلل وصورة أخرى على عمود آخر لابنه والد الشيخ زاهر، الشيخ عبد الله. هذان هما الشيخان الوليان المؤسسان للطريقة. أما الشيخ زاهر فقد تولى بعد والده مشيخة الطريقة.

رحبوا بي، وقدموا لي الشاي. أخبروني أنهم يقْدمون من قراهم مع عائلاتهم سنويا إلى مسجد سارغميتش؛ ليحيوا مولد السيدة زينب، يحضرون معهم مؤنتهم من الأطعمة والقدور والمواقد والشاي والسكر، كذا مكبرات الصوت. يكررون هذا الفعل خمس مرات أو ستًا سنويا، في موالد مختلفة على مدار السنة. كما أنهم يحيون مولد شيوخهم الكبار: الشيخ أحمد والشيخ عبد الله في موطنيهما بالشرقية، وكعادة أهل الطرق الصوفية، فإن هذه المجموعة تميزت بكرمها وحسن ضيافتها للوافدين عليها مثلي. كما وجدت الشيخ زاهر، يرحب بشرح ما غمض علي من أسس الفلسفة الصوفية. قلة منهم حاصلة على قدر عال من التعليم ويجيدون الإنجليزية.

هكذا واصلت التردد عليهم، في قرية الشيخ زاهر. كان الشيخ يلقاني في "الساحة" الخاصة به، في قريته، أو تلك الساحات، التي يشيدونها في الموالد المختلفة التي كنت أتبعه إليها. كنت أهاديه بالحلوى، و يهاديني بالفاكهة أو الفطائر.

قبل أية محاولة لشرح بعض جوانب هذه الظاهرة، يجب أن نشير إلى أن الحلول هو فعل وليس نظرية، ولا توجد أية نظريات تقود إلى تجربة الحلول. إن الولي الصالح هو الذي يتمثل بالرسول في أفعاله، ليس ذلك الذي يسود الصفحات بالحبر، أو كما يقول الشاعر الفارسي جامي "... القراءة عن الخمر لا تقود إلى السكر". هذا السياق مختلف عن التفسيرات التي يتبناها المفسرون الأصوليون، الذين حينما يقرءون النصوص يكونون ملتزمين بحرفيتها. وبالتالي يكرسون نشاطهم فقط في هذا المجال. نحن لا نقول إن الصوفي شخص بعيد عن التفقه في دراسة النص، كما يستطيع أن يمزج بسلاسة بين تصوفه، وبين حرفة يحترفها يتعيش منها. إن الكثيرين من أهل التصوف يمتلكون معرفة عميقة بالشريعة الإسلامية. وحتى القرن التاسع عشر، كان العديد من علماء الأزهر ينتمون إلى الطرق الصوفية.

فالصوفي يعتبر المحبة فوق القانون، وروح النص فوق حرفيته. إن اعتقادهم راسخ بأن النصوص المقدسة، والفرائض الدينية، كل منها لها ظاهر وباطن. وهذا ينطبق على كل جوانب هذه الظاهرة، باعتبارها بعض الحقيقة. فالحق المطلق، هو صفة لله وحده، بينما المعرفة يمكن اكتسابها من خلال أفعال معينة، مثل التأمل وتفعيل البصيرة.

يكتب السيد أرنست عن " المعرفة " و " الحلول " في كتابه بأن الحلول يحدث من ترداد ألفاظ معينة إبان حالة الانجذاب. هذا يخلق علاقة لا يدركها العقل بين الإنسان وبين المطلق. كذا يكون من المستحيل تبيان كيف يستطيع كائن محدود القدرات - أي الإنسان - أن يمتلك معرفة بالغيب، أو أن يتحد بالروح اللا محدودة، المطلقة.

يقول: " من الخطأ اعتبار أن المعرفة والحلول " أشياء " يمكن اقتناؤها. هناك قدر غير محدود من أسرار التوحد، لكن كما أوضح الحلاج في " بستان المعرفة " أن الحق حق، والخلق خلق، وليس هناك ما نخشاه "، وحتى مع هذا الكم الهائل من النظريات التي أنتجها شيوخ المتصوفة الأوائل، فإن المشايخ المعاصرين مثل الشيخ زاهر، لا يجدون أنفسهم في مسيس الحاجة لتلك النظريات وهم يمارسون تصوفهم عمليا، ففي إجاباته عن الأسئلة الموجهة إليه، يستخدم الشيخ زاهر قدرا محدودا من

النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية. على الرغم من ذلك أجده يأخذ تصوفه بجدية بالغة، لعله قد يصبح وليا في مرحلة من مراحل حياته. ومن أقواله المأثورة عن الله: " لا أرضي ولا سماواتي تسعني، لكن أملأ قلب عبدي الذي يؤمن بي". إن ذروة تألق هذه الطقوس يكون في الاحتفالات. إن ديانة قدماء المصريين لم تتكشف لنا عبر أفكار كتلك التي في موسيبوتاميا(*)، ولكن من خلال الشجن المحرك للعواطف والمرتبط بالشعيرة الدينية الذي ينبثق من مضامين سحرية قوية. هذه المضامين ليست لها سوى قوة بسيطة لكنها تستمد طاقتها من الشعائر والطقوس، والعكس من الديانات السامية، فإن المصرية القديمة لم تخلق هوة بين الإله والإنسان لكنها اعتبرتهما في اندماج وشراكة، خاصة عند الموت ؛ حيث نجد علاقة خاصة تتجلى بينهما. فقد كان يوجد اعتقاد راسخ بأن الميت يحوز نوعا من القدرة التي مكنت الآلهة من الانتصار على الموت. وهذا الاعتقاد كان واحدا من مستلزمات شعائر الدفن، لكن لو اعتبرنا أن الطقوس الصوفية وشعائر تقديس الأولياء والقديسين الحالية، ليست سوى امتداد للشعائر القديمة، فسيكون هذا قسرا للأمور وتبسيطا مخلا، لكني وجدت التشابه بين الماضي والحاضر قويا لدرجة لا تجعلني أتجاهله.

حينما ظهرت إلى الوجود أول طريقة صوفية كانت شعائر الحلول قد تطورت ونضجت عبر خمسمائة سنة، وسوف أشير باختصار إلى تاريخ هذه الحركة والتي تمحورت حول المرشدين الأوائل للتصوف والذين كانت لهم حلقات مريدين كبيرة أو صغيرة. أولئك الذين طوروا مبدأ المحبة الغنوصية والوسائل المختلفة للحصول عليها.

إن المتصوفة الأوائل كانوا يبثون دعواهم بين الجماعات الهامشية في المجتمع، كانوا لا يهتمون بالعالم، بل بالله وحده، وبدرجة أقل ببعضهم بعضا. وكان التصوف قديما يتمحور حول الزهد والتقشف ولا يزال كذلك حتى الآن، لكن هذا مجرد درب

(*) العراق – بين النهرين (دجلة والفرات). (المترجم)

مؤقت يقود إلى الطريق. ونجد عند الحسن البصري المتوفى عام 728 مثالا قويا على هذا بقوله : " كن في الدنيا كأنك لست موجودا بها، وكن في الآخرة كأنك لن تغادرها "، كما ان مبدأ محبة الله الخالصة والنقية قد بشرت بها السيدة رابعة العدوية المتوفاة عام 801؛ فهي بشرت بمحبة الله لذاته ليس لخوف من الجحيم أو رغبة في النعيم.

أضاف ذو النون المصري المتوفى عام 859 **مبدأ المعرفة**، المعرفة بالله، تلك المختلفة عن **العلم**، معرفة التأويل والتفسير، يقول: " المؤمن يبصر دون الحاجة إلى المعرفة ودون الحاجة إلى النظر ودون الحصول على معارف ودون توصيف ودون كشف".

أحس أبو اليزيد البسطامي المتوفى عام 874 أنه قريب من الله لدرجة التوحد فيقول: " سبحاني" مثله مثل الحلاج المتوفي عام 922 القائل : " أنا الحق " وقد صلبوه بتهمة الكفر.

أما التمردي المتوفى في بداية القرن العاشر فقد أسهم بدوره في تأصيل مبدأ القطب الغوث، ويقول العارفون بالقضايا الصوفية إن عدد الأقطاب أربعة ويقول آخرون إنهم خمسة أو سبعة.

أما الجنيد البغدادي المتوفى أيضا في القرن العاشر فتتم مقارنته بمعلمي الصوفية في عصره باعتباره مثقفا من نوع متميز، كما أن حلقات التصوف الموجودة الآن قد وصلت إلينا من خلاله، فهو يلح على ضرورة التطهر المتواصل ومقارعة النفس، يقول: " نحن لا نمارس التصوف كلاما بل بالجوع والزهد في الدنيا وقطع الأواصر بيننا وبين ما تعودنا عليه واعتبرناها حسنة " كذلك فهو يلح على ضرورة حالة " الصحو " ضد " السكر " كما مارسها البسطامي.

قام الشيخ الأكبر ابن عربي المتوفى عام 1240 بتصنيف التصوف في دواوين ضخمة من الشعر. إسهامه الأساسي كان في نظرية " وحدة الوجود " والتي تعني بشكل ما أن الله لا يكون موجودا فحسب في كل مكان بل هو موجود أيضا في كل الأشياء.

وقد ورثت الطرق الصوفية عند ظهورها في بداية القرن الثاني عشر والثالث عشر، فلسفة ابن عربي، ولا يمكن تفسير ذلك بجلاء كامل. فتطور الطرق الصوفية كان دائما يتمحور حول شخص واحد في زمن معين، الذي كان يقوم بالدعوة ويأخذ العهد على مريديه ويرشدهم إلى الطريق الذي كان يرتبط باسمه بعد وفاته من خلال المشايخ الذين يعتبرون أنفسهم ورثته الروحيين.

إن الإرشادات السهلة للالتحاق بالطرق الصوفية جعلتها متاحة للعامة بعد أن كانت مقصورة قبلا على النخبة المختارة، وما ضاع من تراث التصوف عوضه اكتساب جماهير غفيرة للطرق الصوفية، ويمكننا القول بأن التجربة الروحية المتميزة قد تمت دمقرطتها(*).

إن الطرق الأساسية الموجودة بنشاط في مصر(الأحمدية، البرهومية، والشاذلية) أو تلك التي في العراق (الرفاعية والقادرية) على الرغم من أن مؤسسي الأحمدية والشاذلية قدما من الغرب الإسلامي (المغرب ثم إسبانيا)، وقد تأسست الطريقة الخلوتية والمولوية في تركيا. كل منها لا تشبه بقية الطرق المتمركزة حول شخص واحد، كذا المولوية والبختشاتية لم يكتب لهما البقاء في مصر.

على المستوى الجماهيري نجد أن أكثر هذه الطرق شعبية، هي الطريقة الرفاعية والتي أسسها واحد من كبار المشايخ والأولياء التاريخيين؛ هو أحمد الرفاعي الذي عاش ما بين 1106 و 1282 في الأهوار جنوبي البصرة ولم يغادرها سوى مرة واحدة للحج. وقد وُجِدت الطريقة في مصر بواسطة أفراد من أسرته وبعض المريدين. وهي لا تزال موجودة في العراق وبلاد أخرى مثل يوغوسلافيا. لم يكن الرفاعي مؤلفا أو مفكرا عميقا لكن شهرته كانت نتيجة شخصيته غير الاعتيادية وجذب إليه الأعداد

(*) أى ابتعادها عن الصفوة واندارجها جماهيريا بشكل يبدو ديموقراطيا. (المترجم)

الكبيرة من المتصوفة قدموا إلى خلوته في قرية أم عبيدة. وهو من نسل الرسول من ناحية الأب والأم وتمتد جذوره العائلية إلى الحسن والحسين على التوالي. هذا هو السبب في تلقيبه " أبا العلمين " منذ البداية.

ويمارس مريدوه بعض الخوارق أسوة بشيخهم، مثل المشي على الجمر الملتهب دون أن يصابوا بالحروق، وتخزيق أجزاء من أجسادهم، بدبابيس ضخمة، دون أن تسيل الدماء منهم. كما أنهم يمتلكون قدرة السيطرة على الثعابين والعقارب ويجعلونها تألفهم.

وقد أخبرني شيخ السجادة الرفاعية الشيخ كمال محمود ياسين في محاولة منه لإبعاد الخرافات عن الطرق الصوفية بأن كل ما يقال عن هذه الخوارق إنما هو لغو فارغ، وأن أحمد الرفاعي قام بكرامة معينة مرتبطة به حينما حاول أعداؤه في السلطة قتله؛ بأن وضعوا ثعبانا ساما بجواره بينما كان ساجدا يصلي، لكن الثعبان لم يلدغه. يضيف، هذه كرامة مرتبطة بشخصه فقط، ولم يحزها خلفاؤه ومريدوه من بعده.

وبسبب وجود قدر من الاستقلالية في الرفاعية، فإن الطريقة لم تصب بالانشقاقات التي أصابت الطرق الأخرى. ويمكن للواحد أن يشاهد أعدادهم الغفيرة في الموالد المختلفة ومن السهل التعرف عليهم من راياتهم السوداء، فهي الطريقة الوحيدة التي ترفع الرايات السوداء. يعقدون مولدهم الكبير في بداية شهر رجب، يحيطون بمسجد الرفاعي في القاهرة، هناك دُفن شيوخهم الكبار الذين انحدروا من نسل شقيق أحمد الرفاعي.

ورجل آخر يتميز بالأفعال العظيمة، هو السيد أحمد البدوي وكنيته شيخ العرب. إنه هو الذي أسس الطريقة الأحمدية، وُلد في فاس عام 1199 وتوجه إلى الجزيرة العربية في طفولته وتعلم الفروسية وبرع فيها واهتم بدراسة الدين وهو في الثلاثينيات، التحق بالطريقة الرفاعية في الأهوار وأخذ العهد على يدي الرفاعي الذي بعث به إلى مصر ممثلا للطريقة واستقر به الحال في طنطا، وهناك مارس بشكل فعال و مؤثر حالات من التقشف وترويض الجسد حيث كان يجلس لساعات

طوال فوق سطح بيته محدقا في الشمس، بالإضافة إلى كثير من المعجزات، جذبت إليه أعدادا غفيرة من المريدين، أسس طريقته ثم توفي عام 1278.

وعبر الزمن انقسمت الأحمدية إلى عدد كبير من الطرق ولكنها تشترك في أشياء بعينها، مثل اللون الأحمر لشعاراتهم وللعمائم. كما أنهم يتبعون في تواريخ موالدهم التقويم الشمسي الذي يتبعونه في تأريخ مولد السيد البدوي في طنطا، وليس بمستحيل أن نتقول إن مولد البدوي الذي يقام في شهر أكتوبر في طنطا لم يحل محل احتفالات ماقبل إسلامية، بل ما قبل مسيحية. لكن على أية حال فإن الأحمدية هي طريقة مصرية خالصة متسمة بطابع فلاّحي، ولا يوجد امتداد لها خارج حدود مصر.

إبراهيم الدسوقي (1246-1288) هو المصري الوحيد المؤسس لطريقة صوفية كبيرة، وقد أخذ العهد في الرفاعية وفي الأحمدية، لكنه أسس طريقته الصوفية الخاصة به و يطلق عليها اسم "البرهومية " وأحيانا " البرهانية " أو " الدسوقية ". ألف الدسوقي كتابا في التعاليم لمريديه، لكن ما يعرف عن حياته قليل غير ما عرف عنه بأنه متفقه في اللغة، وحسب رواية الشعراني فقد كان يعرف اللغة الفارسية والعبرية ولغات الزنج وكل لغات الطير والحيوانات المفترسة.

إن لون رايات الطرق الصوفية، المنبثقة من الطريقة الدسوقية، هو اللون الأخضر. كما أن تحديد تواريخ موالدهم يعتمد على التقويم الشمسي مثل الطريقة الأحمدية.

أما بالنسبة للطريقة الشاذلية فإنها انتشرت في مصر منذ سنوات تأسيسها الأولى. مؤسسها هو أبو الحسن الشاذلي الذي أعطى الطريقة لقبه. من المحتمل أنه وُلد عام 1196 أو عام 1197 بالقرب من قوطا في تونس. انضم إلى الطريقة الصوفية " البومدينية " لأبي مدين المتوفى في تلمسان عام 1198 والذي كان مسقط رأسه بالقرب من سيفليا الإسلامية. تلقى أبو الحسن تعاليمه الصوفية الأولى في غرب إفريقيا، ثم واصل تعلمه على الطريقة الرفاعية، التي زار مركزها في أهواز العراق حوالي 1220،

ثم استقر بعد ذلك في الإسكندرية. توفي عام 1258 وقد ترك لنا بعض طقوس للتلاوة وتسمى "حزب البحر وحزب البر "والتي لا تزال تُستخدم للاعتقاد بأنها تحوز قوى سحرية، لكن الذي أسس طريقته هو نسيبه أبو العباس القادم من " مُرسيه " الإسبانية وطورها ابن عطاء الله الإسكندراني، وتسلم منه ابن عبادة القادم من رونا والذي وسّع من مبادئ الطريقة. اشتهر ابن عطاء الله بكتابه " الحِكَمْ "، وهو يحتوي على 162 مأثورة وبعضها مذيل بالتعليقات، التي اعتبرها البعض التوضيحات الأولى لمبادئ الشاذلية.

إن التوسع الرئيسي للطريقة الشاذلية حدث في شمال إفريقيا، بينما ظلت مصر في مركز اهتمام الطبقة الوسطى. وقد أدخل الشاذلية احتساء القهوة بهدف البقاء ليلا دون نوم ومواصلة التلاوة والتفكر باسم الله، وهم يرفضون قطعيا الكحوليات والمخدرات. ثمة أنواع مختلفة من الألوان يستخدمونها؛ الأبيض والأخضر والأزرق والأصفر، وهم لا يظهرون بكثرة في الموالد، حتى تلك المهمة منها مثل مولد الشاذلي، في حُميصرة، وأبي العباس في الإسكندرية.

وتعرّف العالم الغربي على طائفة من الشاذلية، هي الحميدية الشاذلية بسبب الدراسة التي كتبها عنهم " جيلسنان " وتجدهم أحيانا يظهرون في بعض الموالد، يشتهرون بأنهم يتركون انطباعا قويا بحسن التنظيم. وفي مولد أبو العلا بالقاهرة تجدهم يحتلون مسجده مستغلين فرصة أن مركزهم الرئيسي يقع في الحي ذاته. ويعتقد الشاذلية بأن عدد المريدين في الطريقة مقدّر ومحسوم بشكل قدري، ويعتقدون بوجودهم منذ آلاف السنين قبل مولد الشاذلي المؤسس. إن أبا الحسن الشاذلي ليس هو أول صوفي ينتمي إلى التصوف الموجود في الغرب الأفريقي. شيخان كبيران قدما من المغرب هما عبد الرحيم القناوي، المتوفى عام 1196 في قنا، وسيدي أبا الحجاج (الشهير) بالأقصري المتوفى عام 1244 في الأقصر.

إن النشاط الأساسي للجماعات والطرق الصوفية يتمحور حول " الذكر " الذي يمارسونه جماعة، وهو حركات إيقاعية تقوم على أنغام الموسيقى لمنشد أو أكثر. وأحيانا تصاحبها إيقاعات الطبول والناي والمزمار. وهدف الذكر مثل بقية الأنشطة الصوفية هو تنقية القلب من شوائب الدنيا، بالإلحاح على ذكر الله وتهيئته لحلول الله فيه.

يقف الرجال في صفين متقابلين، وأحيانا توجد بعض النسوة ويقفن على مبعدة من الرجال. يتواجه الرجال مع بعضهم بعضا ويتحركون متمايلين إلى الأمام وإلى الخلف، ومع تزايد إيقاع الموسيقى فإنهم يتمايلون إلى اليمين وإلى اليسار بينما تبقى أقدامهم ثابتة على الأرض. ووسط الصفوف يقف الشيخ أو من ينوب عنه، يقود الذاكرين في إيقاعاتهم، مصفقا بيديه فيغير اتجاه أجساد الذاكرين وإيقاعاتهم. أحيانا يغيب عن الوعي أحد الذاكرين خلال انجذابه في الذكر، وهو شيء نادر الحدوث وغالبا ما يقع للصبية الذين ليست لهم خبرة بالذكر.

وبعد الانتظام تدريجيا في تحرك سريع، ثم أسرع فأسرع، لمدة عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة أو حتى عشرين دقيقة، فإن الموسيقى تتوقف فجأة لتبدأ من جديد، لكن ببطء هذه المرة، بينما يقف المنشد كعادته على رأس صفوف الذاكرين، ويمكن لحلقات الذكر أن تستمر لساعات طويلة، بينما يتحرك الذاكرون داخل حلقة الذكر أو خارجها تاركين الذكر متى أرادوا ذلك. كما نلاحظ تغيير الشيخ الذي يقود الذكر.

وكلمة ذكر تعني تذكر الله ورسوله، ويمكن نطقها بأساليب مختلفة في الطرق الصوفية المختلفة. كل طريقة، تفتتح وتختم الذكر بوردها الخاص أو " حزبها " مثل حزب سيدي أحمد الرفاعي، الذي يُعتقد أنه يحتوى على قدرات سحرية خاصة، فمثلا إذا ما تلاه صوفي فوق إناء به ماء، يعتقدون بإمكانية قدرة الماء على شفاء بعض الأمراض.

يتخذ الذكر أشكالا عدة؛ فمن الجائز أن يُمارس بشكل فردي أو جماعي، بحركة جسدية أو بالسكون. الهدف منه كما ذكرت هو جلاء العقل أو الروح من السفاسف ومن أية مشاغل، بل التركيز في التفكر بالله، كما أن التحكم في عملية التنفس هو سمة من سمات الذكر. تكون المبالغات أحيانا في هذا الصدد بمراجعتنا لقول البسطامي "العبادة عند الزاهد هي مراقبة التنفس" ونلاحظ أن ترداد بعض الصيغ المحددة خلال الذكر، قد تطور في الأغلب على أيدي ذاكرين مجهولين لدينا، لكنه يشبه كثيرا

بعض الممارسات الدينية في تلاوة الصلوات المسيحية في عصورها الأولى (صلاة يسوع)(*) و "نامو اميدا بوتوسو" (أو الإله) في اليابان ونجد تشابها أيضا في الديانة البوذية في ممارسة التلاوة الحرفية لنصوص التأمل العقلي الروحي.

على الرغم من اشتراك المريدين من أعضاء طريقة ما، مع الذاكرينَ الآخرين من طريقة أخرى، في حلقة ذكر تضمهم جميعا، فإننا نجد أن مريدي وأعضاء طريقة ما معينة يقومون بتكوين حلقة ذكرهم الخاصة بهم طبقا لتوجيهات شيخهم، حيث يتلون بشكل متكرر عبارة " لا إله إلا الله " أو كلمة " الله " وأحيانا "هو"، أو اسم من الأسماء الحسنى تتكرر آلاف بل عشرات الآلاف من المرات.

يُقام الذكر الفردي غالبا ليلا بسبب أن المريد عادة ما يكون منغمسا في أشغاله اليومية أثناء النهار، ويختلف مقدار الوقت الذي يخصصه للذكر، لكن دون مغالاة كما يقول البعض. ثمة تقليد ينص على أن للزوجة ثلثًا من الوقت ليلا، وثلثًا آخر للرجل والثلث المتبقي لله كما قال لي شيخ من الطريقة الخلوتية في القرنة. الشيخ محمد الطيب، وقلة من المتصوفة يصومون النهار ويقيمون الذكر طوال الليل.

وبجانب المناسبات الاحتفالية مثل مولد النبي حيث يقام الذكر الجماعي، فإن لكل طريقة عادتها في الذكر ؛ فبعضها تقيمه مرة في الأسبوع والبعض الآخر أكثر من مرة، أو يوميا . أحيانا في الساحة المحيطة بضريح الولي المؤسس أو في بيوت المريدين. ويقيم الشيخ زاهر الذكر مع مريديه في الساحة الخاصة به وبالطريقة التي يقودها، عقب صلاة الظهر يوم الجمعة أسبوعيا . وهو لا يختلف في هذا مع العديد من شيوخ الطرق الأخرى.

(*) هى المعروفة باسم الصلاة الربانية التى علمها المسيح لتلاميذه وتبدأ "أبانا الذى فى السماوات ..." ويصطلح عليها المسيحيون من جميع الطوائف باسم صلاة أبانا الذى ... (المترجم)

وتُعقد حلقات الذكر أو " الحضرة " في أضرحة الأولياء في أيام محددة من الأسبوع في القاهرة، في أضرحة السيدة نفيسة، وفاطمة النبوية وأبو السعود. وتتم زيارة هذه الأضرحة في أيام الآحاد والاثنين والثلاثاء على التوالي. غالبا ما تُعقد الحضرة في أماكن كهذه، ما بين صلاة العصر، وبعد صلاة المغرب. ولا يقيم المتصوفة من الطريقة المسلمانية في البندرة الذكر، إلا نادرا، لكنهم يلتقون مرتين أسبوعيا لكي يتلون مقتطفات من قصيدة نهج البردة، وهم يعتقدون أن بها إمكانيات سحرية مثلها مثل حزب الرفاعي. إن الفورات الحماسية المتنامية باطراد في حلقة الذكر تختلف من طريقة لأخرى، باختلاف الوضع الطبقي للذاكرين وعلى تقاليد الطريقة ذاتها.

الطريقتان النقشبندية والخلوتية، هما أكثر الطرق الصوفية في مصر تحفظا بالنسبة للذكر. فكمبدأ عام لهما، لا تعقد الطريقتان حلقات ذكر على الإطلاق. وفي نشاطهم الجماعي يقوم المريدون بالصلاة أو بتلاوة الأوراد سويا وهم جلوس على الأرض. ينتسب للطريقتين جمع من صفوة المتعلمين، كما أن الطريقتين لا تضمان عددا كبيرا من المريدين، ويميلون إلى النظر باستخفاف تجاه الفلاحين من مريدي الطرق الأخرى.

يقول الشيخ أحمد الطيب وهو خلوتي ويعمل صيدلانيا في القرنة : "كل الشيوخ في طريقتنا، أتموا تعليمهم في الأزهر، وكلهم على قدر من الثراء، والذكر بحاجة إلى أشخاص محترمين كما أنه بحاجة إلى مكان محترم يُقام فيه "، وطبقا لتقاليدهم فإنهم حينما يعقدون حلقات الذكر، يمارسونه برقة وأناقة. التطوح عندهم ممنوع بتاتا.

وفي ألوان الطيف للصوفية نجد طرقا، مكونة أساسا من الفلاحين مثل الطريقة الرفاعية. الفلاحون، هنا، يميلون إلى الاندماج في الذكر حركة وإيقاعا، حتى يصلوا إلى فقدان الوعي.

ونكمل البحث، فنجد أننا نصل إلى طرق أخرى يثقب مريدوها وجناتهم وأجزاء من أجسادهم بدبابيس حديدية ضخمة. وتلك التي يسير مشايخها فوق السيوف المشرعة الممدودة فوق أعناق وصدور المريدين الذين تمددوا على الأرض. وعلى العكس من

الاعتقاد السائد، فإن هذه الطقوس تتم ممارستها في وضح النهار، وليس ليلا. وغالبا في الوقت الواقع بين صلاة الظهر وصلاة المغرب.

ولا يشجع المشايخ الكبار للطرق الصوفية، هذه الممارسات، بما فيهم المشيخة الرفاعية وبالتالي فهي في طريقها للاندثار. إن الإيقاع العنيف في حلقات الذكر، يُعتبر اعتيادياً، ليس فقط عند الرفاعية ولكن عند البرهامية أيضا، وطرق أخرى كثيرة.

يعتبر الشيخ زاهر، نفسه، معتدلا وسط هذه التنوعات. فعلى الرغم من أنه رفاعي وذاكر قوي الإيقاعات حينما يقود الذكر، فإنه لا يمارس " الدوسة ". كما أن مريديه لا يستخدمون الآلات الموسيقية إبان الإنشاد، كما أن هناك أمرا بمنع التدخين في مجموعته، يعتبرونه حاجزا إضافيا بين الله والإنسان. والاستثناء الوحيد للسماح بالتدخين، كان من حق عبد الرشيد، وهو يعمل نجارا؛ لأنه يقوم بمهمة خاصة وهي طرد الأرواح الشريرة. معظم أفراد طريقة الشيخ زاهر من الفلاحين، لكنك تجد بينهم طبيبا جراحا، وطبيب أسنان، وضابطا في السلاح البحري. كما تجد بينهم حرفيين كبارا وصغارا.

فى أثناء الذكر وخاصة عند افتتاحه يقوم المريدون بترديد صيغة " لا إله إلا الله " والتي تتحول مع سرعة الإيقاع إلى "الله" أو ذلك الاختصار الفائق الجمال " حي " التي تصل ذروتها، فتبدو كصرخة ثاقبة. لفترة من الزمن اعتقدتُ أنها كلمة " هو "، لكن الشيخ زاهر أوضح لي أنها صفة من صفات الله تنطلق مباشرة من القلب. يقول: " عند الصوفية فإن كمال الاسم (لله) هو الإشارة "، فالمرء لا يحتاج هنا سوى إلى رمز يشير به، لأن تحديد الاسم هنا يشغل القلب عن التركيز في المقصود وهو الله.

يقول الشيخ : " في البداية كانت الأرواح جميعها واحدة، لكنها تفرقت بعضها عن بعض حينما احتلت أجسادا مختلفة. إنها تعاود توحدها فى أثناء الذكر".

ينفر الإسلام بقوة من البدعة، وهي بشكل عام أي شيء لا يمكن تأصيله إلى التفسير القرآني أو أحاديث الرسول. لهذا فمن الأهمية البالغة تأسيس المصادر التي يستند إليها الذكر، في القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية ؛ حيث إن الإسلاميين الأصوليين يشككون في التصوف ذاته.

على الرغم من عدم قوة العلاقة بين الفعل " تذكر الله " الموجود في آيات قرآنية، وفعل الذكر، ذاته المقام في حلقات الطرق الصوفية، فإن مبدأ التصوف ظهر مبكرا فأمكن إيجاد أحاديث تعتبر صحيحة متعلقة به، على الرغم من أنها لن تصمد طويلا أمام تحليل نقدي.

" التذكر " و " ذكر الله " موجودة في تسع آيات في القرآن، في أدبيات الحديث عند المتصوفة، أهمها الأحاديث القدسية، تلك التي قالها الله سبحانه، وكشفها لرسوله، لكنها ليست مذكورة في القرآن. ويطلق عليها النوافل أو أحاديث النوافل، ومن هذه النوافل: "ما زال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها وقدمه التي تمشي".

وطبقا لحديث يُنسب إلى الترمذى قال رجل للرسول : " هناك الكثير من القواعد في الإسلام وإني قد طعنت في العمر، حدد لي ما أتبع " فقال الرسول: "دع لسانك يلهج بذكر الله".

وحديث آخر للرسول : " كل شيء له صفاؤه وصفاء القلب في ذكر الله. وليس هناك شيء كذكر الله ينجينا من عقابه". فسألوه : " حتى الجهاد في سبيل الله ؟ " فأجاب " ولا حتى لو تحطم السيف إلى جزأين ".

وفي حديث للرسول "الفرق بين الذين يذكرون الله، والذين لا يذكرونه كالفرق بين الحياة والموت ".

وفي الأحاديث التي جمعها الترمذى، حديث للرسول: "إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا"، فسألوه: "ما هي جنات النعيم ؟" فقال: "حلقات الذكر".

ومن الخطأ الاستنتاج من قراءة هذا الفصل أن المتصوف ليس في حاجة سوى إلى الذكر فقط. فإذا اعتبرنا أن الذكر جهد مضاف، فمن الطبيعي أن نعرف أن هناك قاعدة صلبة يضاف إليها الذكر. هذه القاعدة هي التطبيق الصادق للدين وتعاليمه الأخلاقية، " فلتكن عادلا قبل أن تكون ناسكا " أو حسب تعبير الصوفي القديم الأنطاكي " يجب التخلص من الشر قبل أن تقوم

بعمل الخير ؛ لأنه من الواجب أن نتحاشى كل عمل شرير بينما من الطبيعي القيام بأعمال الخير، وكما قال الرسول ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء "، أي باختصار فإن الإسلام التقليدي يرتكز على الإيمان، ومع ذلك فإن "على المسلم أن يرعى داخله بذور المحبة (فهي) أفضل من سبعين سنة عبادة بدون محبة " كما أن على المسلم أن يمارس" الواجبات الدينية متفرغا لها، فذلك الذي يعرف من يسجد على يمينه ومن يسجد على يساره تعتبر صلاته باطلة ".

وحقا، فإن هناك متصوفة، بشروا بالإقلال من ممارسة واجبات دينية معينة. فالحلاج أُعدم بتهمة الزندقة، أوصى بأن ينفق المسلم النقود التي ادخرها لرحلة الحج بإطعام اليتامى والمساكين وكسوتهم وجعلهم سعداء.

بالإضافة إلى التحكم في الرغبات الدنيا في الإنسان، هناك ثمة ميول يجب تنميتها مقابل تلك التي يجب قمعها. أخبرني الشيخ أحمد الطيب أن الله يحب الكرم خاصة تجاه المساكين والتواضع خاصة من قبل الأغنياء، وطلب المغفرة خاصة من قبل الشباب، ويكره الله البخل عند الأغنياء، والتكبر عند الفقراء، والعصيان خاصة عند المسنين.

وبالإضافة إلى فضائل الذكر الجماعي، فإن الذكر الشخصي الصامت الذي يمارسه الذاكر من أعماق قلبه يُعتبر في منزلة عليا. فأثناء التأمل للمعتزل الذاكر، فإنه يشعر بأن كل الأشياء التي حوله تشاركه صلواته. هكذا كان حال الشيخ أحمد رضوان وقت عزلته في الصحراء، كما وصفها الحاج أحمد عبد الملك بقوله : " أخبرني الشيخ رضوان أنه أقام في الصحراء لفترة طويلة وأنه حينما كان يقوم بالذكر كان يستمع إلى " لا إله إلا الله " من النباتات ومن المياه ومن تراب الأرض، وقال إنه مرة أراد التبول فلم يستطع أن يجد مكانا خاليا من حمد الله، فطلب عون الرسول عليه السلام بل إنه استغاث بالله سبحانه وتعالى أن يُسكت اللاهجين باسمه ". والله عند المتصوفة متخفٍ خلف الحُجُب، التي يجب كشفها واحدًا تلو الآخر. هذا الإجراء يتطلب نقاء القلب وطهارته بقمع النفس السفلى (وطبقا للشيخ زاهر قتلها والبعض الآخر يقولون بتدريبها) ونزوعها الأصيل إلى النزوات، وبجعل الإيمان يحل محل ذلك. فالنفس ميالة للشر كما يقول الشيخ زاهر، متخذا مثال زليخة التي حاولت إغواء يوسف.

التطهر والتسامي يوصف بأنه " طريق " من عدة مراحل، على المريد أن يجتازه مرحلة إثر مرحلة بمساعدة شيخه وإرشاده الضروري. فالمريد يجب أن يكون في يد الشيخ كالجثمان تحت يدي الحانوتي. هذا شيء أساسي، لمن آراد " الطريق " ورغبه (من ليس له شيخ فشيخه هو الشيطان)، فإرشاد الشيخ ضروري ليس فقط لمنعه من الزيغ فحسب، بل إن لم يقم الخضر بإنارة الطريق له فلن يصل إلى أي شيء خلال مرحلة الحياة القصيرة المعطاة له (من يسافر دون دليل يحتاج إلى مائتي سنة لرحلة تستغرق يومين فقط) يدرب الشيخ مريده فترة تطول أو تقصر، حسب استعداد المريد وحسب الطريقة التي يختارها. أحد أهم التعاليم التي تقدم للمريد : اتباع الذكر الشخصي والقيام به " ابدأ بتخصيص ساعة لربك " كما يقول الحاج إبراهيم، خادم مسجد سيدي علي البيومي بالقاهرة، وأضاف قائلا لي : " وكرر اسما من أسماء الله الحسنى، خصص يوما من أيام الأسبوع لاسم مختلف، أطل المدة تدريجيا واستمر مادامت روحك منفتحة تجاه هذا الفعل. توقف إذا ما تشتت انتباهك وأصبحت قلقا. لا تتعجل في التلاوة، بل تذوق كل اسم. في النهاية سوف تحصل على الأعداد التي ذكرها سيدنا علي. هذه الأعداد يجب أن تعتبرها أسنان المفتاح. لست في حاجة إلى أكثر أو أقل. سوف تشاهد الملائكة والأرواح، جميعها متعلقة بالمحبة والحنان ".

حينما يتعلم المريد ما فيه الكفاية، يقام احتفال، يمسك المريد بقبضة يد شيخه بينما تُتلى آيات من القرآن، ويعد المريد شيخه بأن يتّبع كتاب الله وسنة رسوله. يقوم هذا التقليد مستندا على سورة الفتح وعلى الآية العاشرة منها :"إن الذين يبايعونك، إنما يبايعون الله. يد الله فوق أيديهم. فمن نكث، فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه الله أجرا عظيما" إن الملايين المنتمين إلى الطرق الصوفية والذين يقال إن نسبتهم تصل إلى عشرة في المائة من السكان، لم يكن عددهم ليصل إلى هذا الحجم لو توقفوا عند مجرد أخذ العهد. أما المتصوفة الجادون في تصوفهم، فهناك عدد من الدرجات والمقامات، عليهم أن يمروا بها، تصل ذروتها عند مرحلة الفناء في الله. وتعني اختفاء هوية الفرد في الله ؛ اكتساب صفات الله بإفناء ملكات الفرد وبالتالي الدخول و " الغرق " في الوجود الإلهي.

يقول الشيخ أحمد رضوان: "كنت في مجلس أحدث فيه إخواني فذهبت روحي وقلبي إلى ربي ذهابا شرعيا وهو "مقام الإحسان "، وكان قد كشف لي تعالى عن جماله فخرجت عن نفسي إليه. وهي حالة ترد على قلوب أهل الحضرة فيكونون مع الناس ظاهرا، ومع ربهم باطنا وهو ما يسمى عند القوم بالشهود، وهي حالة وهبية لا كسبية"(*).

بعد مرحلة الفناء تأتي مرحلة البقاء، أي العودة مرة أخرى إلى الدنيا كشخص عارف بالله وكشيخ متصوف له كراماته.

في مرحلة الأنوار(**) يتحرك الأولياء وسط الناس، يأكلون وينامون ويذهبون إلى الأسواق، ويشتركون في البنية الاجتماعية لمجتمعهم، لكنهم لا ينسون ذكر الله لحظة واحدة أو كما يعبر عن ذلك الشيخ أحمد رضوان: " كل من رجع من عند الله يقول للناس عن الله.. بالله. إنه يرى بالله، ويبصر بالله، وبالله يقف، وبالله يجلس".

وقبل الوصول إلى حالة الفناء، على الصوفي أن يمر بمراحل أخرى مثل التوبة، ووحدة الوجود التي لا تكون إلا في الإنسان الكامل، والتوكل على الله ورفض الدنيا والصبر على المكاره، والاعتراف بالجميل والرضا بالحال.

وفي هذا الصدد من الأهمية الإشارة إلى " الجذب " وهو " اختطاف رباني يحدث من غير عناء ولا مشقة سعي وصاحبه يصلي "(***) ويُعتبر المجذوب شخصا محدود الإمكانات العقلية. في جماعة الشيخ زاهر يوجد عدد من المجاذيب، ونتكلم عن هذه الظاهرة بسبب وجود الحاجة عيشة التي تتحرك إبان الذكر وسط صفوف الذاكرين دون نطق كلمة واحدة، وقد علقت بندقيتين خشبيتين فوق كتفيها، أشار إليها الشيخ زاهر قائلا " إنها في حالة جذب " وأوضح أنها مرحلة في درب الولاية والتي عبرها كل

(*) الولاية كسبية للحديث القدسى "من أتانى يمشى أتيته هرولة" فمتى صححت العقد مع الله زادك من فضله، فإذا اجتهدت فيما أمرك، منحك الوهبية (كتاب – النفحات الربانية – الشيخ أحمد رضوان).

(**) للولاية أنوار. فالولى الكامل له نور أخضر، وغير الكامل له نور أصفر، والولى المتنقل له نور أحمر «النفحات الربانية – الشيخ أحمد رضوان".

(***) المرجع السابق.

من والده وجده. في حالة الجد استمرت مرحلة الجذب اثنتي عشرة سنة حيث كان يتجول في منطقة قنال السويس والإسماعيلية والمناطق المجاورة ويقعد في مسجدي سيدنا الحسين والسيدة زينب.

وفي باكورة حياة الشيخ رضوان الصوفية وصفه أحد شيوخه بأنه " زعيم مجاذيب الصعيد"(*) ويطلب الشيخ أحمد رضوان من الناس أن يعاملوا المجاذيب بالرأفة " فإذا جاءك أحدهم فلتعطه ما يطلب ولكن إذا طلب نقودا فلا تعطه، لأنها تستوي عنده مع التراب ولبس الملابس عنده والعرى سواء. ولا تأخذ من المجاذيب شيئا، ولا تطلب منهم الدعاء، لأنهم يدعون عليك بالفقر والمرض، لأنهم يحبون هاتين الصفتين للمسلمين جميعا، فالله يدخل بهما المسلمين الجنة، وإذا أعطاك المجذوب ليمونة، فإن فيها بلاء ومرضا. فعفوا عن ثيابهم أو الأكل معهم. ومن المجاذيب من يسير من جهة إلى جهة، ويمشي دائما، ومنهم من يبقى مكانه. وبعد فترة الجذب يصحو المجذوب، أما في فترة الجذب فيكون عقله غير ثابت ".

ولا يعبر كل متصوف من هذه الحالة إلى الحالة التي تليها. فهناك من يواصل البقاء مجذوبا طوال حياته. أما الذين يتجاوزون مرحلة الجذب فإنهم يستعدون للدخول في " مرحلة الولاية " وخلالها يُمتحنون بتجارب قد تكون مؤلمة.

ويقول الشيخ زاهر: " إنه في هذه المرحلة، وجد جدي الشيخ أحمد نفسه في يوم عيد يسير في درب يجتازه أناس مع أولادهم. جعله هذا يتذكر أولاده. دخل مسجدا ونام هناك، فحلم أنه يرى الأقطاب الأربعة يطالبون بإزالة اسمه من الولاية، لكن السيدة زينب تدخلت قائلة: " إن أحمد بمنزلة ابني وأنا أعرفه جيدا "، وهكذا حينما استيقظ قام الشيخ أحمد بإزالة كل فكر متعلق بعائلته من قلبه حيث لا يشغله سوى ذكر الله فقط"، ويروي الشيخ أحمد رضوان كيف عاش ثلاثين سنة في بلاء متصل،

(*) يعتقد العامة أن المجذوب هو شخص مجنون، لكن التعبير الصوفى عن المجذوب يختلف تماما؛ فطبقا لكتاب النفحات الربانية المشار إليه «المجاذيب قوم أخذهم الله من أنفسهم، فهم ليسوا مع الناس، وهم ناجون، لكنهم لا ينفعون الناس لأن الذى ينفع فى طريق الله هم علماء (العارفون) بربهم العاملون بالكتاب والسنة، والجامعون للحقيقة والشريعة. (المترجم)

وكيف أن أهل قريته كانوا يشمئزون منه وينفرون، بل إن بعضهم كانوا يريدون قتله، " لكني لم أغضب منهم على الإطلاق، ولم أدعُ عليهم في صلاتي، بل كنت أطلب من الله أن يحسن حالهم وأن يلين قلوبهم ".

ومع أن الدين الإسلامي يحبذ الزواج وقد قدم الرسول المثال على ذلك، لكن المتصوفة اعتبروا تكوين أسرة، قد يكون، بمثابة عقبة في الطريق إلى الله. ويقال إن الصوفي الكبير، الفضل، المتوفى في مكة عام 803 ، لم يبتسم خلال ثلاثين سنة إلا مرة واحدة حينما مات ابنه. إن المتصوف الذي يأخذ الجدية في اختياره للطريق، يعتبر الأسرة عامل تشتيت للتركيز في الحب الوحيد الذي سمح لنفسه به.

وقد طرحتُ سؤالا على الشيخ زاهر الذي منحه الله نعمة الأولاد، ومن الواضح أنه يحبهم، سألته عن موقفه تجاه المقولة السابقة. لكنه يبدو أنه اعتبر سؤالي تدخلا في شؤونه الخاصة واختار أن لا يجيب عليه. كان امتناعه عن الإجابة سببا في إصرار دكتور جمال الذي كان يقوم بالترجمة؛ فقد أخذ يلحّ عليَّ " كرر سؤالك ! أصر عليه ! هذا ما نرغب جميعنا في معرفته!" يندرج المتصوفة المصريون في ثمان وستين طريقة معترف بها. وكل طريقة لها " شيخ سجادة " وهو المسئول عن متابعة شؤون الطريقة داخل مشيخة الطرق الصوفية التي هي بمثابة " نقابة " لهم. إن منصب شيخ السجادة وراثي، ويساعده نائب او وكيل له، كما يوجد خليفته المحلي، على مستوى المركز أو المحافظة.

يؤمّن شيخ السجادة على تعيين نوابه وخليفته، لكن معظم قادة المتصوفة ليس بالضرورة أن يكونوا من صفوف المريدين. إنهم يرثون مناصبهم وألقابهم هذه من أسلافهم.

إن منصب شيخ السجادة الذي يحظى بلقبه بالوراثة، بالغ الأهمية، ويتمتع بتبجيل كبير من المريدين.

يهتم الخليفة بالمسائل الروحية والدنيوية للمريدين. يكون موجوداً عند الملمات، وحلالا للمشاكل العائلية. يلتجئ إليه المريدون، ليتدخل في المشاكل التي تقع بينهم. فليس من المألوف أن يشكو مريد مريدا آخر من طريقته في المحاكم. فالطريق

بمثابة دولة قائمة بذاتها أو كما يقول الشيخ زاهر " إنه نظام تراتبي لكن بلا سياسة ".

يزور الشيخ مريديه الذين يعيشون ويعملون في قرى وأماكن نائية ويقدم إليهم حينما يستدعونه للتدخل في أزمة ما، هذا يعني أنه يسافر معظم أيام الأسبوع، ولا يبقى مع أسرته إلا بضع ساعات يوم الجمعة حيث يصلي بالمريدين في الساحة الخاصة به(*)، ومن الصعب على الشيخ زاهر أن يباشر كل هذه المسؤوليات بالإضافة إلى عمله في وزارة التربية والتعليم لو لم يكن يمتلك سيارة يقودها بنفسه. إنها هبة من بعض المريدين الأثرياء. لا يحصل الشيخ على عون اقتصادي من مريديه،اللهم سوى بعض الهدايا البسيطة كتعبير عن العرفان منهم.

حينما يغيب الشيخ، فإن إخوته، أو أعمامه يمثلونه. وجميعهم يحظون بالاحترام والتقدير الكامل من المريدين الذين يقبلون أياديهم.

مؤسسو الطرق الصوفية يحظون بقداسة الأولياء الصالحين ويراهم الناس هكذا، ويتم الاحتفال بتواريخ ميلادهم أو بأيام خاصة بهم في موالد محددة لهم.

أما أيام محنتهم وحياتهم العجائبية فتظل موجودة في ذاكرة المريدين الذين يتذكرونها ويرددونها بحيوية.

تشترك مصر مع يوغسلافيا، بشكل استثنائي، في تشكيل إطار يجمع أنشطة الطرق الصوفية. فمنذ القرن التاسع عشر، أصبح المجلس الأعلى للطرق الصوفية هو الذي يقرر شؤون الطرق، وهو يتكون الآن من عشرة مشايخ لطرق صوفية، وخمسة

(*) لكل شيخ طريقة، حتى الصغار منهم لهم ساحاتهم الخاصة التى غالبا ما تحيط بمسجد ويكون فيها أيضا أضرحة أسلافهم – ويقدم فيها الطعام للزائرين فى المناسبات والمواسم وتقام فيها حضرة الذكر. (المترجم)

أعضاء من غير المشايخ من موظفي الدولة ومن دار الإفتاء ومن مشيخة الأزهر. يجتمع المجلس مرة كل شهر، وتجهز اللجنة التنفيذية لاجتماعاته. هذه اللجنة مكونة من ستة مشايخ فقط. يوافق المجلس على التعيينات داخل الطرق الصوفية، وكذا الأنشطة المتعلقة بها مثل الأضرحة والمقامات، ويحفظ سجلات تواريخ الموالد والاحتفالات بالأولياء. كما أنهم يمتلكون الحق بالاعتراف أو برفض طلب تأسيس طريقة جديدة غير الطرق الموجودة حاليا، وهي تضم ما بين ثلاثة ملايين وخمسة ملايين مريد، ويوجد في كل منطقة ممثل للمشيخة يراقب مجريات الأمور.

ويعني هذا أن الطرق الصوفية تتمتع في مصر بقدر كبير من استقلالية إدارة شؤونها، بالإضافة إلى اعتراف الدولة بها اعترافا كاملا. بينما يُنظر في العديد من البلاد الإسلامية الأخرى، إلى الطرق الصوفية، باعتبارها حركة متخلفة، وبالكاد يتم التغاضي عن أنشطتها. ونجد أن الطرق الصوفية ممنوعة تماما في تركيا.

ويتأكد موقف الحكومة المصرية من الطرق الصوفية، باشتراك ممثلي الدولة في الافتتاح الرسمي لاحتفالات الموالد المهمة. وأيضا من الاهتمام الرسمي الذي يقوم به محافظ الإقليم مثلا في الاشتراك في احتفالات مولد النبي في منطقته. ثمة تكتيك معترف به بين الحكومة والطرق الصوفية عن تحالفهما بمواجهة الجماعات الإسلامية المتطرفة، التي ترغب في الإطاحة بالحكومة وتأسيس دولة إسلامية. وكذا بإلغاء كل المظاهر التي تعتبرها هذه الجماعات كبدع دخلت على الإسلام الأصولي كما يرونه هم، بما فيها الاحتفالات بالموالد والممارسات الصوفية بشكل عام. وعلى الرغم من إحجام أعضاء الطرق الصوفية عن الانضمام للأحزاب القائمة، باعتبار أن أنشطتها تشغل المريد عن ذكر الله، نجد أن عددا كبيرا من المسلمين (المتصوفة) يصعب ضمهم إلى الجماعات الأصولية. هكذا تقدّر الدولة في مصر موقف الطرق الصوفية هذا، لإسهامه في حفظ الاستقرار الداخلي.

تستهجن جماعات الأصوليين المتطرفين، و كذا حركة السلفية الواسعة، قيام الطرق الصوفية بتقديس الأولياء، وزيارة الأضرحة. يرفضون مبدأ التوسل بالأولياء، وحتى بالرسول نفسه، في التوسط بين الخالق والمخلوق. لكن الفلسفة الصوفية في

حد ذاتها وأيضا الذكر، لا يثيران غضب السلفيين، كما يظهر في موقف عالم سلفى شهير، هو ابن تيمية، وكذا بعض تلاميذه. فقد ظهر مؤخرا كتاب يحمل للقارئ مزايا الانخراط في حلقات الذكر، يستند في حججه على ابن تيمية المتوفى عام 1328 وتلميذه ابن القيّم.

ونجد أن أهم اختلاف بين السلفيين والمتصوفة، انخراط السلفيين في العمل السياسي، بينما يتجاهل المتصوفة السياسة بكل أنشطتها. بل تجدهم معادين للسياسة من منطلق ازورارهم عن العالم.

وبغض النظر عن مظاهر العداء بين بعض الطرق التي تتمايز في السلم الاجتماعي عن البعض الآخر، مثل تلك التي بين الشاذلية والرفاعية، لكننا نجد أيضا الكثير من التسامح والتعاطف بينها. من الصعب أن تجد صوفيا يعلن أن طريقته أحسن من طريقة أخرى. فالاختلافات الأساسية بين الطرق، بعضها بعضا، هي اختلافات فرعية، وغير مهمة مثل اختلاف ألوان الرايات وصيغ الأوراد. المتصوفة يشاركون في أذكار بعضهم البعض. وكثير منهم ينتمون إلى أكثر من طريقة.

الانتقال من طريقة إلى أخرى يتطلب موافقة شيخ الطريقة التي كان المريد يتبعها. أخبرني الدكتور جمال، وهو من مريدي الشيخ زاهر ومرافقيه، بأنه كان خليليا (وهي ليست ببعيدة عن الأحمدية) وكيف التقى ذات مساء بوالد الشيخ زاهر، الشيخ عبد الله الذي رحب به باسمه، فقد عرفه قبل أن يتعرف عليه، وقال له إنه حلم أن الشيخ أحمد الرفاعي، يطلب من الشيخ أحمد البدوي الإذن بانتقال الدكتور جمال إلى الطريقة الرفاعية. كانت هذه واحدة من معجزات الشيخ عبد الله.

لغة التصوف هي لغة الحب.

ولغة الدين تلك التي يصفها "**روثفين**" في كتابه (الإسلام في العالم) بأنها " لغة تحاول أن تعبّر عن شيء يستعصي على التعبير، وتثير فرضيات بعيدة عن مدارك الفهم الإنساني "، فهناك مئات من التصورات والأفكار المطلقة، تشكلت لتعبر عن شيء لا يمكن وصفه ولتمكن المتصوفة بشكل خاص، أن يتبادلوا الخبرات بعضهم مع بعض دون أن يصلوا إلى هدفهم هذا على

الإطلاق. ولعل أكبر تعبير عن هذا، ما قاله الشعراء الذين يتحركون في فضاء شعري أقرب ما يكون إلى المتصوفة. بضعة أمثلة سأطرحها هنا قد تفي بالغرض.

هناك قدر هائل من الثراء في الشعر الصوفي، والذي لا أعرف منه سوى أقل القليل. ومن هذا القدر الضئيل اخترت بضعة أبيات لشاعرين، مازال المنشدون حتى أيامنا هذه يرددون أشعارهما: المصري عمر بن الفارض، الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وصنوه الأندلسي المولد محيي الدين بن عربي.

عاش ابن الفارض حياة معتزلة في القاهرة والحجاز. وقصائده رغم قلتها العددية تمثل اللآلئ المنضدة بإتقان أكثر منها ثمرة وحي الخاطر كما قال أحد مترجميه وهو رونالد نيلسون.

مختارات من شعر ابن الفارض

ما بين ضال المنحنى وظلالـه ... ضل المتيم واهتدى بضلالـه

وبذلك الشِعب اليماني مُنيـة ... للصبِّ قد بَعدت على آمالـه

يا صاحبي هذا العقيق فقِفْ بِهِ ... متوالِها إنْ كنتَ لسْت بِوالِـهِ

واسْأل غزال كِنّاسِهِ هلْ عِنْده ... عِلم بِقلبِي فِي هواه وحالِـهِ

تفْديهِ مهْجتِي التي تلفتْ ولا ... منٌّ عليهِ فإنها منْ مالِـهِ

أترى درى أنى أحِن لِهَجْرِهِ ... إذْ اجنح مشْتاقا له كوِصالِهِ

مختارات من شعر ابن عربي(*)

إذا ما التقَينا للوداع حسِبتَنـــــا لدَى الضّمّ والتّعنيقِ حَرْفاً مشدَّدا

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينـه دان
لقد صـار قلبي قابلاً كلَّ صورة فمرعى لغزلان ودير لرهـــبان
وبيت لأوثـان وكـعبة طائـــــف وألواح تـوراة ومصحف قـــرآن
أدين بديـن الحب أنَّى توجَّهـتْ ركائبُه، فالحب ديـني وإيمـــاني

ناحَتْ مُطوَّقةٌ، فحنّ حزيــــنُ وشَجاهُ تَرجيعٌ لها وحَنـــــينُ
جَرتِ الدّموعُ من العيونِ تَفَجُّعاً لحنينِها، فكأنّهُنّ عيــــــــونُ
طارحتُها ثُكلاً بفَقدِ وَحيدِهـــا والثُّكْلُ مِن فَقْدِ الوَحـيدِ يكونُ

(*) هذه المختارات منقولة من الأصل العربى. (المترجم)

طارحتُها والشَّجوُ يمشي بيننا ما إنْ تبينُ وإنني لأَبِينُ
بي لاعجٌ من حُبّ رملةِ عالج حيثُ الخيامُ بها وحيثُ العينُ
من كلّ فاتكةِ الألحاظِ مريضَةٍ أجفانُها لظِبى اللّحاظِ جُفونُ
ما زِلتُ أجرَعُ دَمعَتي من غُلّتي أُخْفي الهوَى عن عاذلي وأصُونُ
حتى إذا صَاحَ الغُرابُ بِبَينِهمْ فضَحَ الفِرَاقُ صَبابةَ المحزُون

ألا يا بَانةَ الوَادي بِشَاطي نَهْرِ بَغْدادِ
شجاني فيكِ ميّادٌ طَرُوبٌ فوْقَ مَيّادِ
يُذكّرُني تَرنُّمُهُ تَرنُّمَ رَبّةِ النّادي
إذا استَوَتْ مَثالِثُها، فلا تذْكُرْ أخا الهادي
وإنْ جادَتْ بنَغْمتِها، فمِن أنجشَةِ الحادي
بِذي الخَصَماتِ من سَلمى يميناً ثمّ سِنْداد
لقدْ أصبحْتُ مَشْغُوفاً بِمَنْ سَكَنَتْ بأجيادِ
غَلِطْنا إنّما سكَنَتْ سُوَيْدا خِلْبِ أكْبادِ
لقد تاهَ الجَمالُ بها وفاحَ المِسكُ والجَادي

تُحيي إذا قَتَلت باللحظِ مَنطِقَها كأنها عندما تُحيي بهِ عِيسَى

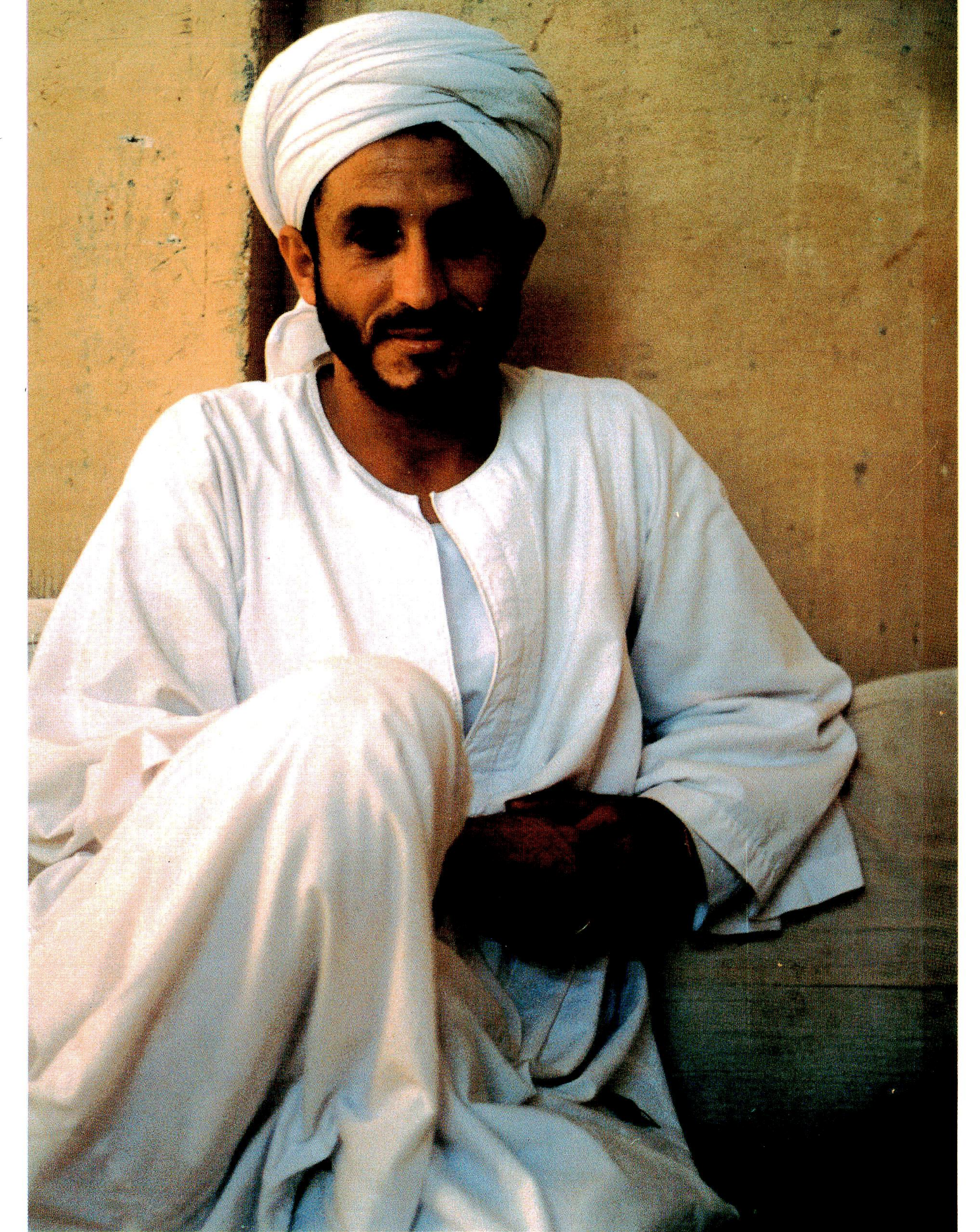
تَوراتُها لَوحُ ساقيها سناً وأنا أتلو و أدرُسُها كأنّني مُوسَى

أَسْقُفَةٌ من بناتِ الرّومِ عاطِلَةٌ تَرى عليها من الأنوار ناموسَا

وحشيّةٌ ما بِها أنْسٌ قد اتَّخَذَتْ في بيتِ خَلوتِها للذّكر نَاوُوسا

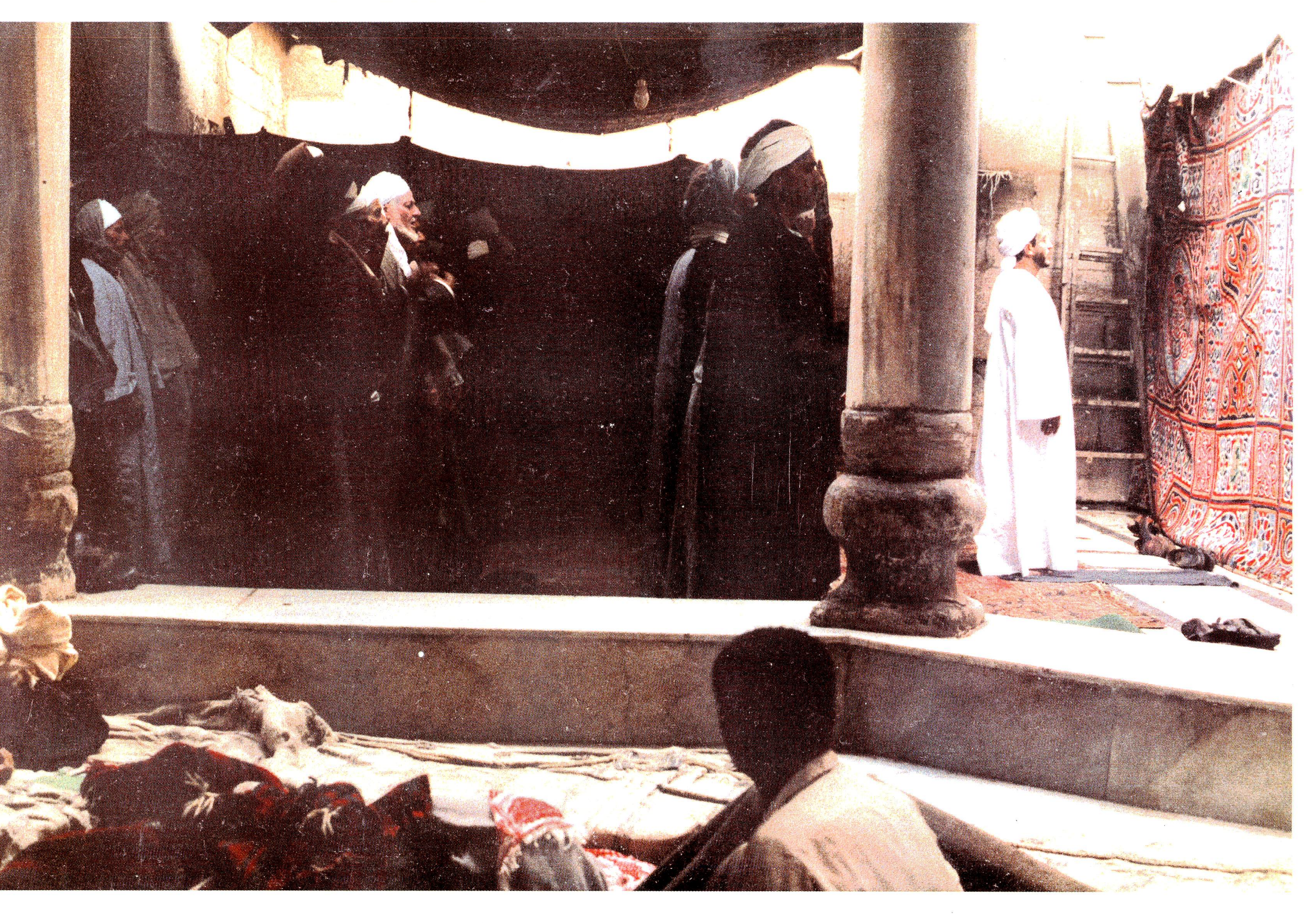
قد أعجَزَتْ كلّ علاّمٍ بِمِلّتِنَا وداوُدِيّاً، و حَبراً ثمَّ قِسّيسا

إن أومأتْ تطلبُ الإنجيلَ تحسبُهَا أقِسّةً ، أوْ بطاريقاً شمامِيسا



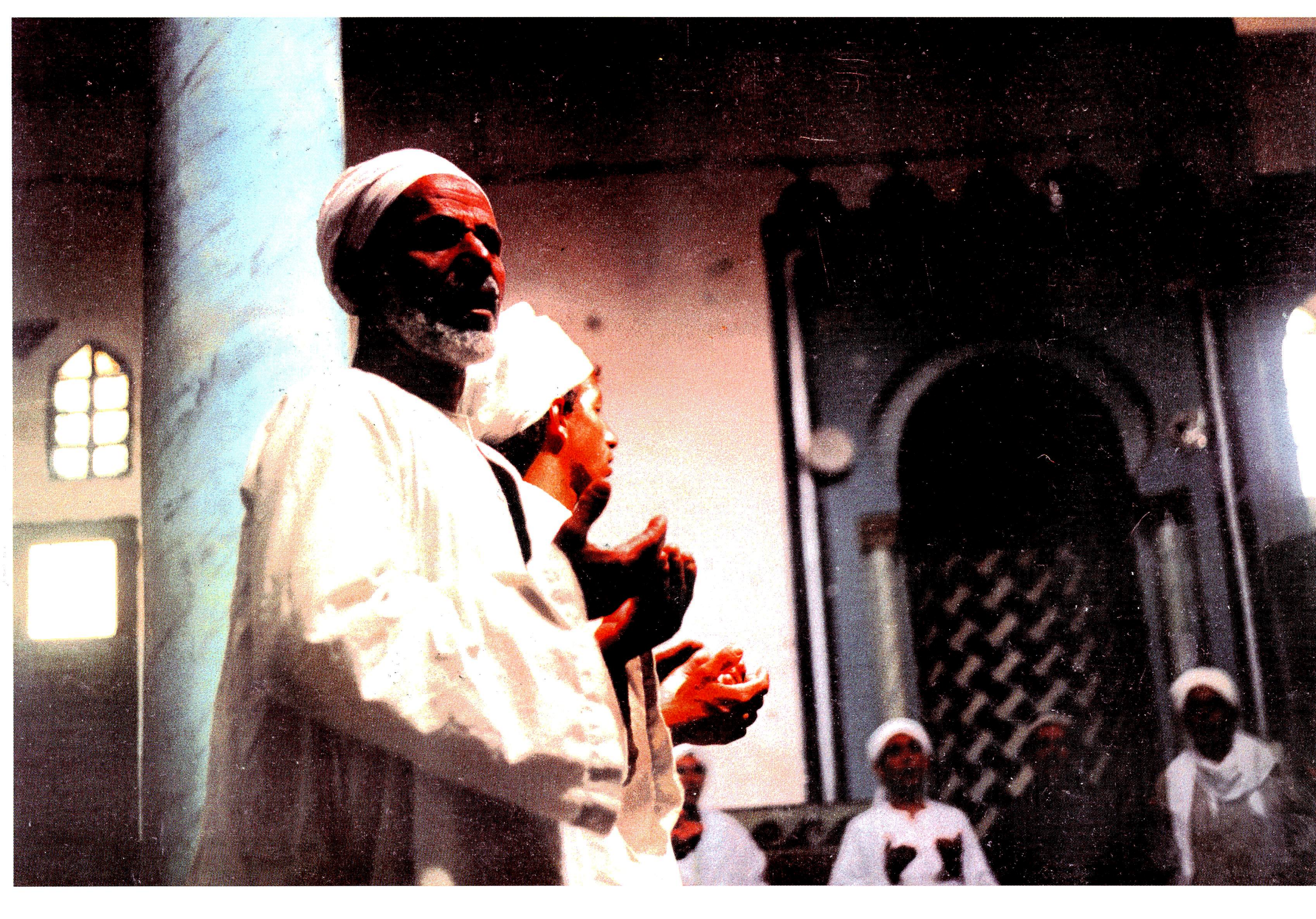
الشيخ زاهر عبد الله أحمد أبو زغلل الرفاعي . هو شيخ لطريقة تضم حوالي ألفي مريد يقيمون في الدلتا حيث يوجد ضريحا جده ووالده. وهو يعمل في وظيفة في وزارة التعليم في منطقة مجاورة لسكنه. يسافر بعد أوقات العمل بسيارته إلى التجمعات المختلفة لمريدي الطريقة طبقا " لأجندة " مواعيد محددة حيث يُحيي ليلة ذكر تقريبا يوميا. أثناء زياراته وبالإضافة إلى اشتراكه وقيادته للذكر يقوم بتسوية المنازعات بين مريدي الطريقة ويقدم النصح لطالبيه، كما يكتب الأحجبة الضرورية لشفاء بعض الأمراض وخاصة آلام "الشقيقة"، أما يوم الجمعة فهو اليوم الوحيد الذي يكرس فيه بضع ساعات يقضيها مع أسرته.

أصبح الشيخ زاهر واحدا من أصدقائي المقربين ومصدرا مهما للغاية في الصوفية.



الشيخ زاهر يؤم المصلين في مسجد سرقامتش إبان مولد السيدة زينب بالقاهرة .

23-3-1878م / 22-7-1407 هـ



تلاوة الأوراد بعد صلاة الجمعة في ساحة الشيخ زاهر



مريدون للشيخ زاهر بعد صلاة الجمعة فى مسجد سرقامتش بالقاهرة

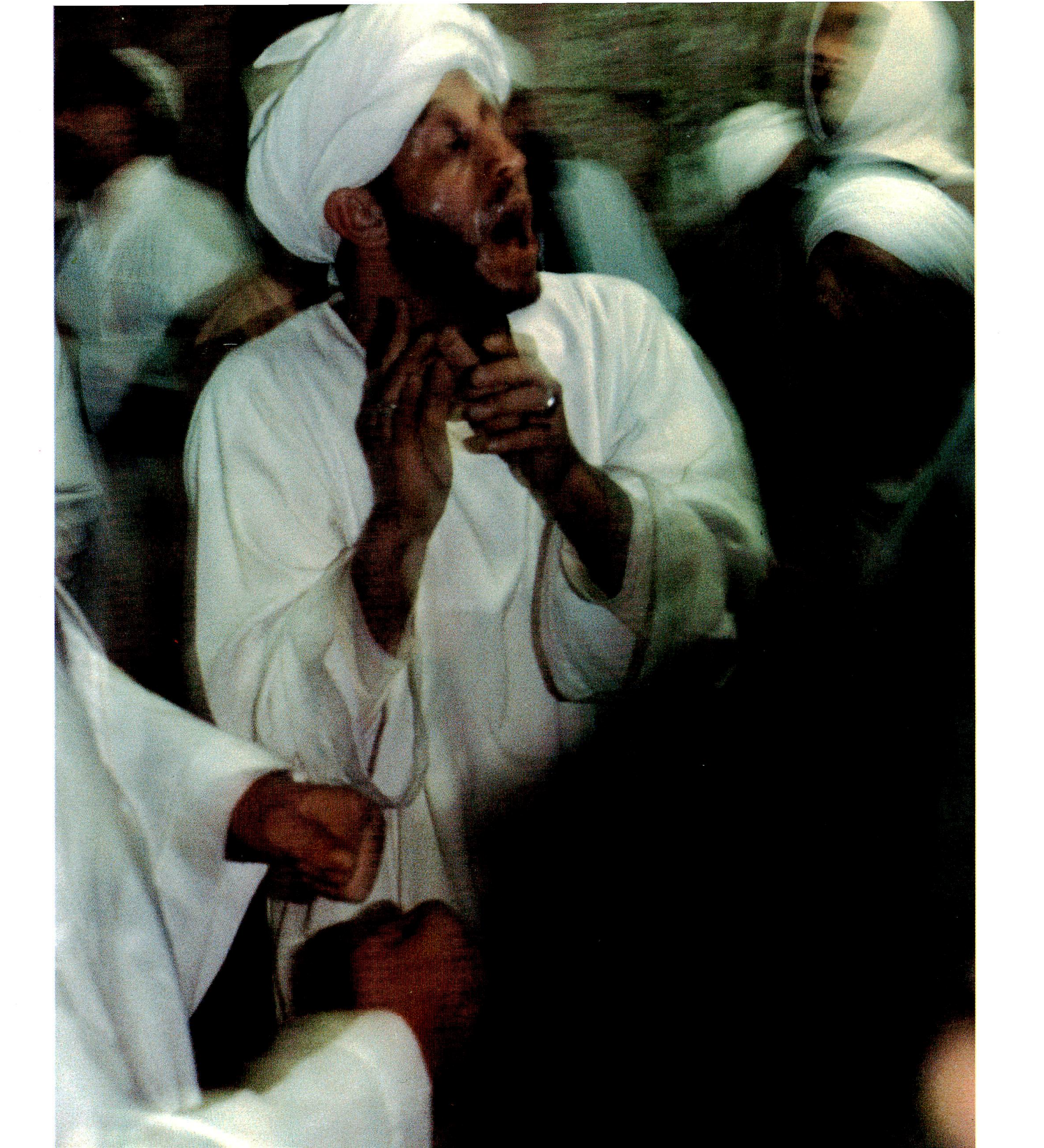
التاريخ 23-3-1987 - 22-7-1407 هـ



الاحتفال بمولد النبي في ساحة الشيخ
زاهر الذي يقود حلقة الذكر بينما
يراقبه ابنه الصغير عبد الله.
ونرى على الحائط صورة معلقة للشيخ
أحمد أبو زغلل مؤسس الطريقة .
التاريخ 3-11-1987 11-3-1408



حلقة ذكر لمريدين للشيخ زاهر في مسجد السلحدار في نهاية مولد الحسين . الشاب في المقدمة هو أحمد الابن الأكبر للشيخ زاهر ، ومن المتوقع أن يصبح في المستقبل شيخ الطريقة بعد والده وتظهر في الصورة في اقصى اليمين الحاجة عيشة المجذوبة .



الشيخ زاهر ذاكرا . قلما شاهدت شخصا ذاكرا في حالة تجل وجذب مثلما رأيت الشيخ زاهر؛ وهو يقيم حلقات الذكر لمريديه الرفاعية في مولد السيدة زينب في مسجد سرقامتش حينما أقاموا هناك لمدة أسبوع . قمت بزيارتهم في وقت متأخر من الليلة الكبيرة بصحبة بعض الأصدقاء. استقبلنا الشيخ بترحاب وقدم الشاي لنا وتركنا ليلتحق بحلقة الذكر. بقينا نحن هناك نراقب الذكر ما يقرب من الساعة، طلبنا من أحد الأخوة أن يبلغ تحياتنا للشيخ زاهر الذي كان يذكر في الحلقة عندما عزمنا على المغادرة . لكن سيدة عجوز من المجاذيب قالت إن الشيخ سيغضب إذا ما غادرنا دون أن نودعه شخصيا . لهذا اتجهَت إلى حلقة الذكر الصاخبة وبسطَت شالا أسود فوق وجهه وقادته برفق تجلسه على حشية قريبة وتغطي جسده كله بملاءة . بقي الشيخ في موضعه والعرق يتصبب منه بغزارة لفترة خمس دقائق قبل أن يتنبه لوجودنا ،فوقف وودعنا وبدا كأنه رجع من مكان بعيد.

8-3- 1988- 30 -7- 1408



تلاوة الورد قبل البدء في الذكر .

أنهى المريدون الرفاعية التابعون لطريقة الشيخ زاهر،احتفالهم بمولد النبي بقراءة " حزب الرفاعي " في آخر الليل.

من المفترض أن يحوز الحزب على قوى سحرية وشفـاء الأمـراض إذا ما تـم استخدامه بطريقة صحيحـة.

1408-3-11 / 1987-11-3



فلاحون فى حلقة ذكر



فلاحون في حلقة ذكر بالمندرة . كنت التقيت ببعض المريدين من فلاحي قرية المندرة وكان ذلك في مولد السيدة زينب بالقاهرة، وقد دعوني لزيارتهم في قريتهم في الأسبوع التالي حيث يقيمون " ليلة " تكريما لشيخهم .

حينما وصلت قاموا بواجب الضيافة الكريمة وقدموا لي أطايب اللحم . ابتدأت " الليلة " بعد صلاة المغرب مباشرة. في البداية كانت هناك تلاوة جماعية لنهج البردة ، ثم تليت الفاتحة في تحية الشيخ وأهل المنزل وأخيرا تكرار تلاوة " لا إله إلا الله " ثم بدأ المنشد في العزف ، وقيام الذكر. وكان الشيخ أحمد ، الذي يقوم بزيارة هذه المنطقة مرة في الشهر موجودا لكنه لم يشارك في الذكر، بل جلس مع أخيه وعمه الذي قدم خصيصا للقائه. يبقى الشيخ لمدة ليلة في منزل هذا الرجل الثري ثم ليلة أخرى فى بيت آخر. حينما غادرت القرية متجها بسيارتي إلى القاهرة حوالي الحادية عشر ليلا كادت السيارة تنزلق إلى مصرف بجوار الطريق الذي غطاه الطين اللزج ، لكن الله سلّم! عرفت أن المريدين يقرأون البردة مساء يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع لكنهم لا يقيمون الذكر إلا في مناسبات خاصة.

1408-6-15 / 1988-2-4

75 - 76







77 - 78

حلقة ذكر في زين العابدين .

هذا الرجل الذي انضم لحلقة الذكر قبل أن التقط الصورة بلحظات قليلة ، وصل إلى حالة من التجلي أفضت به إلى الغيبوبة بعد دقائق من دخوله الحلقة . أمسك الحاضرون به حتى لا يقع على الأرض لكنه بعد هنيهة استعاد وعيه وواصل الذكر متجليا .

1408-6-23 / 1988-2-12



مريد من الطريقة الأحمدية خلال مولد السيد أحمد البدوي في طنطا . كان هذا الرجل يذكر بمفرده وسط حلقة ذكر الطريقة الأحمدية المرازيقية. كنت قد دعوت السفير الأمريكي ليشاهد المولد الذي حضر برفقة
حراسه الشخصيين الخمسة وعدد أكبر من الشرطة المحلية . في النهاية كنا خمسة عشر شخصا ويحيط بنا جنديان من الشرطة على ظهور الخيل . كان ذلك قبيل الليلة الكبيرة مباشرة وبالتالي لم يكن هناك جمهور
كبير ويبدو أن الناس لم تبد اهتمامًا بنا .

1987-10-12



دراويش من الطريقة البرهامية من بلدة طوخ . في عصر يوم من شهر مارس كان هناك الشيخ علي شحاتة وعدد قليل من أتباعه يجلسون بالقرب من مسجد ابن طولون بالقاهرة أثناء مولد السيدة زينب وقد احتلوا حارة صغيرة وضعوا متاعهم وحصيرهم فيها وعلقوا راياتهم على الحائط الذي خلفهم . هكذا كانوا يجلسون بالضبط حينما قدمت عليهم . أصر الشيخ أن ألتقط صورته وهو واقف . وبعد ساعات قليلة التقيت الشيخ زاهر الذي كان يقيم مع جماعته في مسجد سرقامتش .

32-3-1987م 22-7-1407هـ



منشدون وموسيقيون في حلقة ذكر نهاري في مولد الشيخ إدريس في كوم امبو

1407-12-9 / 1987-3-23



الشيخ ضياء محمد من بني سويف وقد وضع فوق رأسه العمامة الأحمدية الحمراء ، أثناء خلوده للراحة مع رفاقه الدراويش على عتبات مسجد سيدي أبو العباس المرسى في الإسكندرية فجرًا بعد انتهاء الليلة الكبيرة لمولد أبي العباس

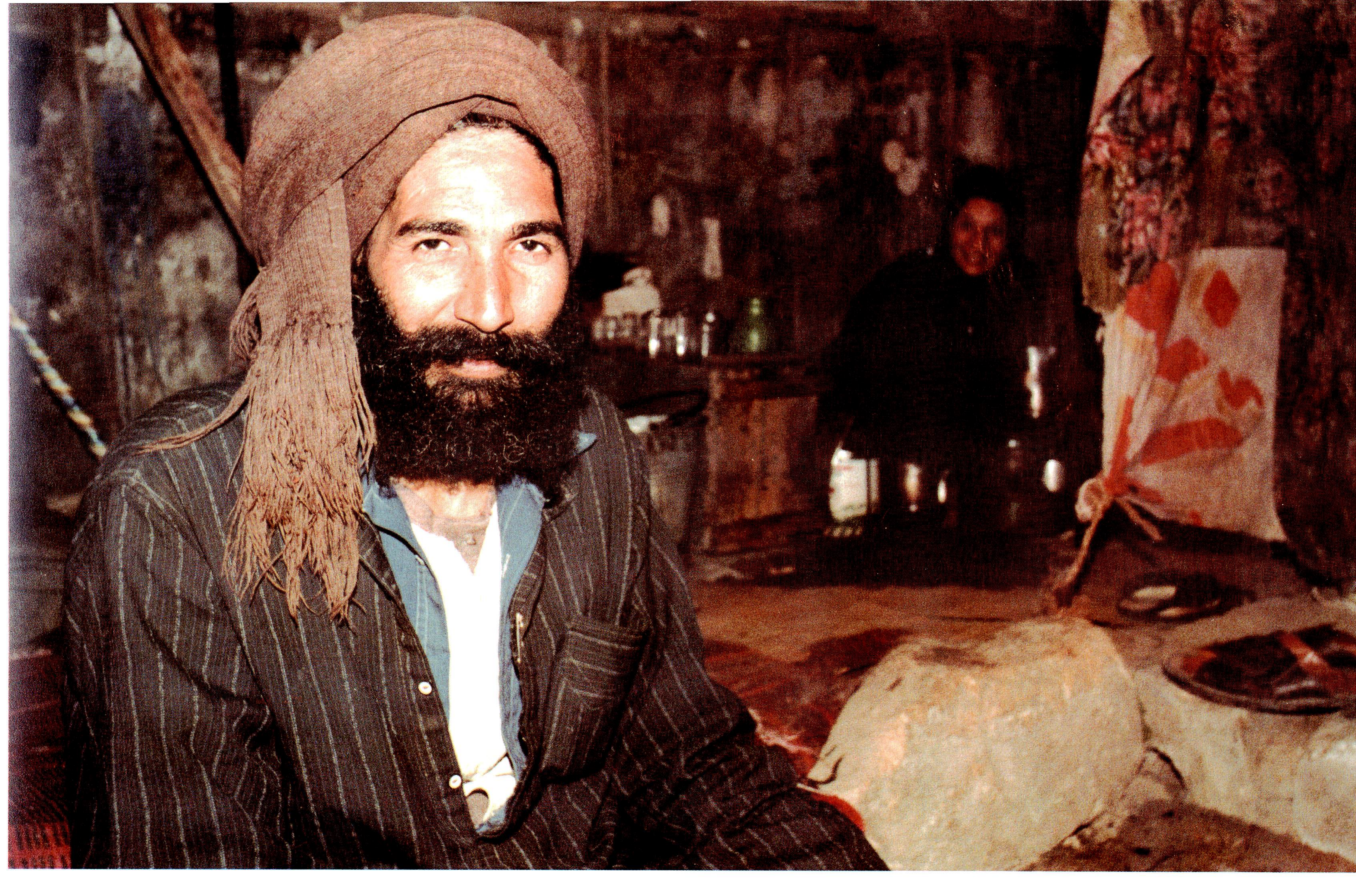
24-7-1987 / 27-11-1407 هـ



محـمـود عـبـد الـرحـمن وهـو درويش من الطريقة البيومية التقيته في القاهرة بعد أن قدم من الإسكندرية لإحياء مولد أحمد الرفاعي .

إن تكحيل العينين ليست عملية تجميلية خاصة بالنساء . ثمة أقاويل تتردد حول " مكحلة الرسول " التي قيل إنها وجدت بجوار فراشه بعد وفاته وبها كحل .

12-3-1987/ 27-11-1407هـ



الشيخ محمد يحيي من الطريقة الرفاعية وزوجته أثناء مولد الإمام الشافعي بالقاهرة . ان الخيمة التي كان يقيم فيها الشيخ يحيي هي واحدة من أكثر الخيام أهمية في مولد السيدة حورية في بني سويف ويمكن مشاهدتها في كل الموالد الكبيرة في القاهرة، و من غير شك في غيرها من المدن . وعادة ألتقي به بالصدفة في مولد الحسين ومولد الرفاعي وهنا في مولد الإمام الشافعي حيث كان يقود حلقة الذكر. قدمني الشيخ الى المجذوب علي الذي قام سابقا بزيارة اورشليم ويقال لها بالعربية " القدس " اكثر من مرة ابان حرب اكتوبر 1973بطريقة عجائبية؛ لذا كان لقبه أيضا " المقدس".



دروايش من الطريقة الأحمدية في بولاق بالقاهرة يرتاحون في مولد سيدي ابو الحسن الشاذلي

وقد كتبوا على راياتهم " مدد يا سيدي أحمد البدوي "



دراويش في بنها يحتفلون بمولد النبي

1408-3-11 / 1987-11-3



الشيخ حامد البيومي شيخ الطريقة البيومية وهو يتقدم الموكب ممتطيا جواده . تحميه المظلة من الشمس كما تحميه أيضا من قطع الحلوى التي يقذفها الناس من بيوتهم على الموكب كنوع من الاحتفاء بالمولد.

1988-12-8



مولد النبي .

في ليلة المولد في بنها أقيم احتفال كبير في المساء، حضره محافظ القليوبية .

في البداية عزفت فرقة الموسيقى العسكرية السلام الوطني ، ثم بدأ عرض عسكري من جنود الشرطة تلاهم رجال المطافئ ، ثم سيارات الإسعاف وفتيان الكشافة. وفي النهاية جاء الدراويش في مواكبهم المختلفة، كل طريقة منهم يتقدمها شيخها على ظهر جواده. يترجلون ليحيوا المحافظ ويمتطوا الخيول بعد ذلك ويتقدمون المواكب.

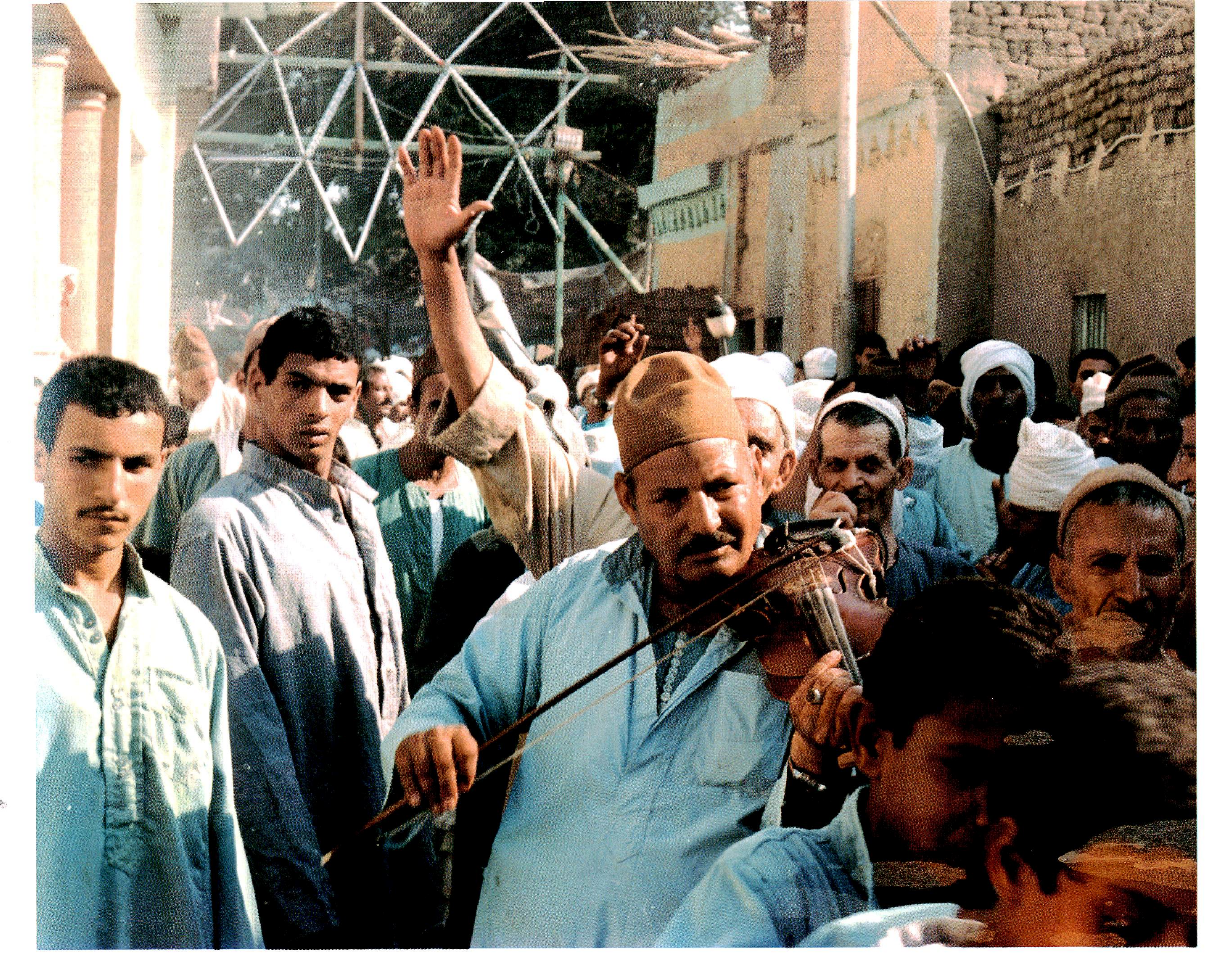
في البداية جاءت الطريقة الحميدية الشاذلية، ثم تبعتها البيومية. ثم الأحمدية البيومية، وفي المؤخرة وهو أكثر الأماكن أهمية ظهرت الطريقة الرفاعية بأعداد كبيرة .

كان هناك جمهور غفير على جانبي الطريق . وعلى مبعدة كان قطار يمر ببطء، وقف البعض فوق أسطح العربات يشاهدون الموكب.

1408-3-11 / 1987-11-3

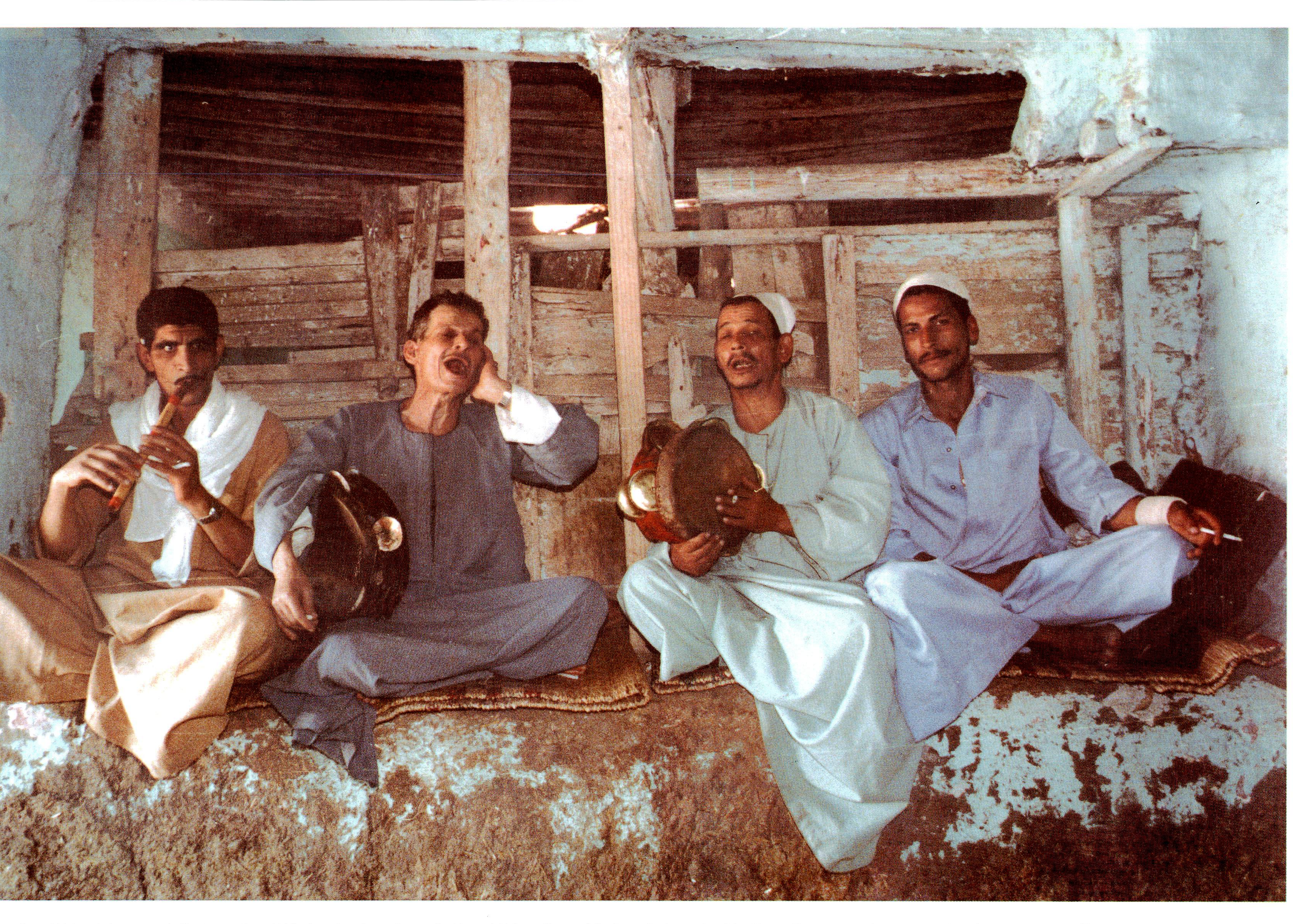
88 - 89 -90





زفة في ميت السباع في مولد محمد العراقي.المنشد الممسك بالميكروفون خلف العازف، هو الشيخ عبد الرحمن شرف الدين . وجدت نفسي بالصدفة أشاهد هذا الموكب بينما كنت في طريقي إلى مولد آخر في مدينة الزقازيق، ولم أكن أعلم أني اشاهد نهاية الموكب الذي كان نهاية طقس الدوسة البالغ الإثارة .

1408-3-11 / 1987-7-9



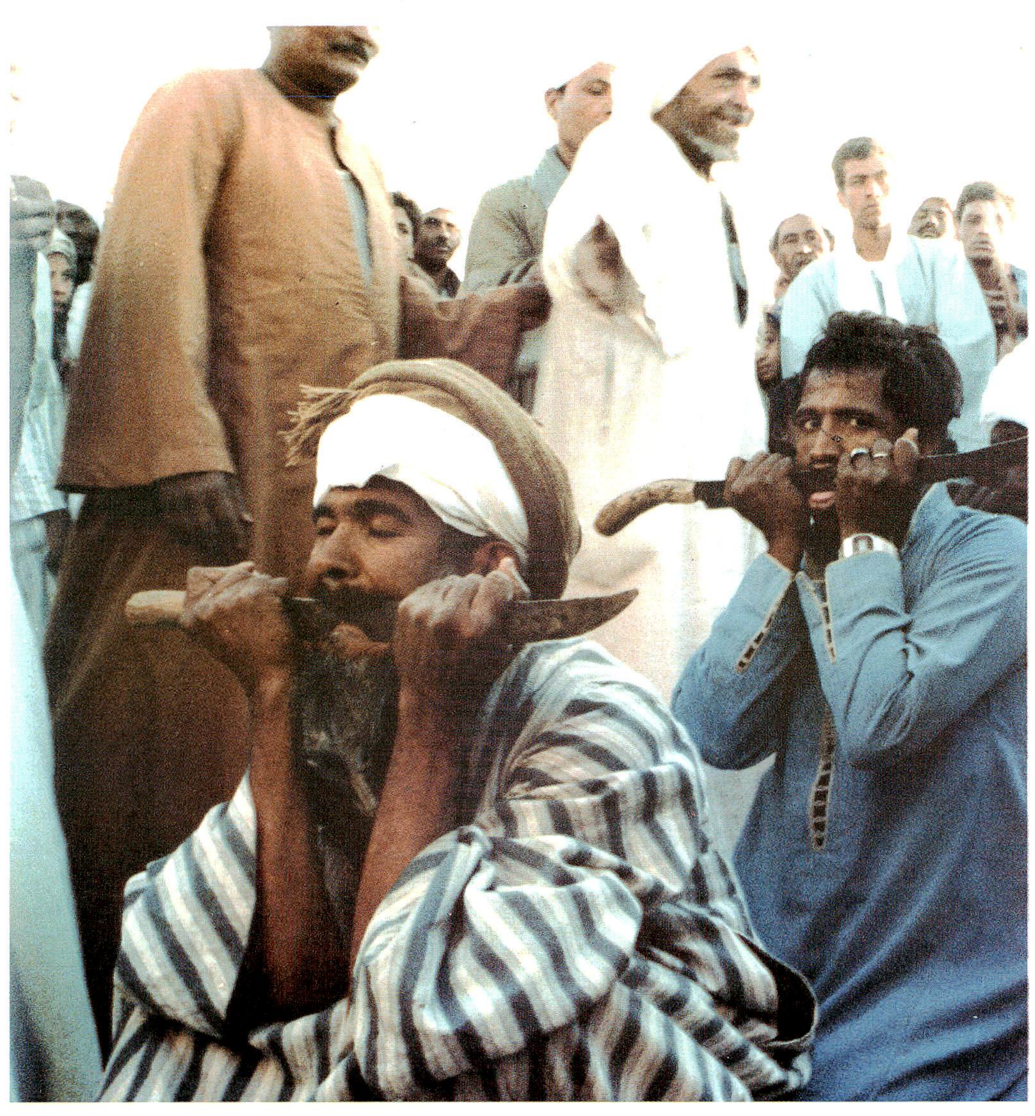
موسيقيون في حلقة الذكر الأسبوعي في ميت السباع في مبنى ملحق بضريح الشيخ العراقي. لقد جاءوا من قرية أخرى لكنهم كانوا في كل الحضرات ورافقوا جماعة الشيخ أحمد في القاهرة حينما ذهبوا للاحتفال بمولد الرفاعي.



زفة في ميت السباع في مولد النبي . نظمت الطريقة الرفاعية الزفة . يكون الشيخ في نهاية الموكب رافعا الراية الخاصة بالطريقة . نشاهد في المقدمة مجموعة من الرجال يحملون السيوف القصيرة التي يسمونها دبابيس . هذه بداية طقس الدوسة والذي يسير فيه شيخ الدوسة الشيخ سليم، فوق حد السيوف التي يثبتها الدراويش الراكعون فوق رقابهم .

الشيخ عبد الله يستعد للقيام بالدوسة في مولد أبو القاسم .

1987-3-29



الشيخ سليم يقوم بالدوسة .



الدوسة في مولد أبو القمصان في قنا . نشاهد الشيخ عبد الله واقفا فوق حد سيف وضعه الدرويش في فمه .
رأيت ثلاثة من الرفاعية وقد ثبتوا السيوف بحدها فوق بطونهم ثم في أفواههم .. وأخيرا ثبتوا مقابضها في الأرض وانحنوا فوق سنونها المدببة مشرعة تجاه بطونهم. وفي كل مرة كان الشيخ عبد الله يسير فوق حد السيف يسنده اثنان من أتباعه.
قبل ذلك كانوا يتراقصون وقد شرعوا السيوف على ضربات قوية من طبلتين كبيرتين تواصلت إيقاعتهما طوال وقت الدوسة .
أخبرني الشيخ عبد الله وقتها بأن الدوسة كانت ممتازة، قال لي إنه يظن أن الأولياء حضروا الدوسة .
وحينما سألته عن الفلسفة الكامنة وراء طقس الدوسة، قال إن السيد أحمد الرفاعي قد مارسها وأن الطريقة الرفاعية تواصل ممارسة هذا الطقس. أحد المشاركين قال إنها اختبار لمدى مصداقية الدرويش نفسه؛ إذا لم يكن الدرويش مخلصا في دروشته فإن النتيجة تكون قطع لسانه بالسيف الموضوع في الفم فوق اللسان، او أن ينزف خد الدرويش الذي يخترق خديه بالدبابيس.
سألته: هل يقومون بتلاوة الفاتحة لأحمد الرفاعي قبل بدء الطقس حتى يضمنوا مؤازرته لهم؟ كنت أتوقع سماع شئ عن انتصار الروح فوق الجسد أو الخضوع الكامل للشيخ لكن لم أسمع ذلك .
قال الشيخ عبد الله إن سيدي أحمد الرفاعي في مرحلة من مراحل حياته قد ذاب في وعاء كبير من فرط حبه لله . وحينما شاهدت ابنته الوعاء، ولم تكن تعرف بما حدث، وما يوجد فيه، سحبت من الوعاء شيئا أسود اللون. كان ذلك الشيء هو عين أحمد الرفاعي الذي حينما عاد إلى طبيعته البشرية عاد بعين واحدة .

لا يحبذ البعض طقس الدوسة أو تخزيق الوجنات بالدبابيس بل تُمنع أحيانا في بعض البلاد، لكن في مولد أبي القمصان رأيت الدوسة تمارس بحرية مطلقة لأن أبا القمصان تراءى في رؤيا لقائد الشرطة المحلية في المنطقة وقال له إن كل شيء مباح في مولده باستثناء تعاطي المخدرات والخمور وضرب السلاح .

1988-3-29



الطبول التي أُستخدمت أثناء الدوسة في مولد أبي القمصان بقنا. إن الدرويش المستلقي على الأرض ينتظر الشيخ عبد الله ليسير فوق السيف الموضوع فوق بطنه

1988-3-29

الزار

ذكرنا أن المسلمين والمسيحيين أيضا، يحاولون التخلص من الأرواح الشريرة (العفاريت) بطردها. ثمة نوع آخر من الأرواح هي " أرواح الزار" (الأسياد أو الملوك) والتي لا تُطرد ولكن يتم ترضيتها. إن طقوس جلسات الزار تهدف إلى إقامة علاقات حسنة بين الشخص الذي تسيطر عليه - أو في كثير من الأحيان- "عليها" الأسياد ، وبين هؤلاء الأسياد.

هنا تظهر أهمية وجود شيخة لها خبرة في هذا المجال. تقوم الشيخة بتفسير أحلام " المريض" ونوع الأرواح المسيطرة عليه، وكسب رضاهم بتقديم ما يشتهون من أطايب الأطعمة (حمام وأرانب ودجاج وما شابه).

إن إقامة حفل كبير للزار، ليس بالأمر السهل، فقد يستمر يوما بأكمله، ثم يجب بعد ذلك على " المريض"، أن يواصل تردده على حفلات زار صغيرة (حضرات) من وقت لآخر، ويرقص على الدقات المخصصة للسيد الذي " يتلبسه".

تعرّفت مصر والمنطقة العربية على الزار بواسطة إثيوبيا؛ فهناك نشأ الزار، وانتقل إلى السودان، ولا يزال إفريقيا بشكل كبير في موسيقاه وكذا في فلسفته. إن الاعتقاد في الأرواح في بلاد مثل مصر، ظاهرة منتشرة بشكل أوسع، من انتشار الزار فيها على الرغم من أنه يبدو كأنه في طريقه إلى زوال.

تُعقد جلسات الزار للزبائن الموسرين في المنازل، بينما يذهب الفقراء إلى الأماكن المعروفة بعقد جلسات الزار، والتي لها أيام محددة في الأسبوع؛ فمثلا في مساء يوم الاثنين في منزل "الحاجة أنهار" في منطقة فاطمة النبوية في الدرب الأحمر، ويوم الثلاثاء بالقرب من ضريح أبو السعود، غالبا ما تكون النسوة هن المترددات بكثرة على جلسات الزار. لا يحبذ وجود الرجال في الجلسات على الرغم من وجودهم في بعض الفرق الموسيقية المصاحبة للحفلات.

كنتُ قد اكتشفت الزار متأخرا. لذا لم أحضر حفلا كبيرا له. فالحضرات التي حضرتها عند الشيخة أنهار كانت مثيرة للاهتمام بشكل معقول؛ أقيمت في غرفة مشيدة بالإسمنت تبلغ مساحتها حوالي أربعة أمتار مربعة، وهذه المساحة الضيقة غالبا تكون مزدحمة، مما يصعب على الراقصين الحركة فيها. يجلس الزوار على الأرض بعد أن يدفعوا مبلغا كرسم دخول، وإذا ماطلبوا الاستماع إلى أغنية خاصة بهم، فإنهم يدفعون مبلغا إضافيا.

وُلدت الحاجة أنهار في القاهرة منذ حوالي سبعين عاما (أثناء كتابة هذا الكتاب)، وتعلمت طقوس الزار على يد والدتها، التي قدمت إلى مصر من السودان. تقوم الحاجة كريمة ابنة أنهار بمساعدتها، وهي التي سوف تقوم بمهامها حينما يأتي الوقت المناسب. كذا توجد امرأتان - أيضا- تقومان بالمساندة أثناء الحفل. جميعهن يقمن بالغناء والرقص الموجه للأرواح تصاحبهن طبلة ضخمة ودَرَبُكَّات صغيرة. تغني أنهار بمفردها بينما تقوم الأخريات بدور الكورس، ثمة آلة موسيقية صغيرة مثل الهارب، هي الطنبورا، تصاحب بعض الأغنيات .

تتواصل الأغنية في الحضرة لمدة حوالي خمس دقائق. تنهض للرقص المرأة التي تستمع إلى الدقة الخاصة بالسادة الذين يتلبسونها، أحيانا يرافقها راقص من الرجال القليلين الموجودين أو واحد من العازفين. سرعان ما تصل المرأة الى حالة من الذهول والتجلي مع تزايد الإيقاع.

يوجد أكثر من دزرينة من أرواح الزار. وقد نشر الباحث " ليتمان" قائمة بدراسة قام بها بين عامى 1911 و 1930 ، وحينما سألت الحاجة أنهار عنهم، أكدت لي وجود معظم هذه الأسماء.

هناك " عائلة الماما" التي يترأسها" باشا ماما"(وهو روح ذكورية) التي تعتبر أكثر الأرواح أهمية. كما توجد عدة أسماء مثل "العربي " و "التركي " وهناك جني يدعى " سلطان الجن الأحمر".

يوجد " ياورا بيه" في القائمة التي أشرت إليها وابنته "روكوش"، ويُعتبر كائنا محترما وراقيا، يضع طربوشا فوق رأسه

ويدخن السجائر بأناقة. وياورا بيه معروف بأنه مفضل لدى النساء ويغنون له أغنية خاصة به هي " اتدلع يابيه، يا اسمر، والعب يابيه، انت القمر واحنا النجوم حواليك ، بعنيك المتكحلة، يا ابوعيون كحيلة يا ياورا بيه. عندك واحدة حلوة ليك يا بيه. ولما أقول أنا بحبك يا ياورا بيه إيه اللي حايجرالي؟" ..إلخ.

تتصاعد سرعة الموسيقى وتبدأ الحاجة أنهار في الغناء " العبوا يا نسوان، العبوا طول الليل" لكن سرعان ما تنتهي الأغنية ويجلس الراقصون على الأرض.

خارج حفل الزار يمكن طلب المساعدة من ياورا بيه لكي يجد زوجا لامرأة تبحث عن زوج.

كثيرا ما يُستعان بالأولياء المسلمين، في حفلات الزار بالنداء عليهم، وطلب التوسط بين الشخص الذي عليه الأسياد أو واحد منهم وبين الأسياد أنفسهم. يكون هذا بواسطة عدد من الأغاني. وفي حالة المسيحيين أو في حالة تسلط أسياد مسيحيين على شخص ما، تُطلب المساعدة من الأنبياء مثل موسى وعيسى وكذا بعض القديسين مثل "جيميان وديميان"، ولعل الأخير محرف من القديسة دميانة التي يقام لها مولد ضخم في الدلتا.



الزار أو الحضرة. نشاهد الحاجة أنهار مرتدية ثوبا أسود وابنتها كريمة في ثوب وردي بينما يقوم الموسيقيون بالعزف على الات إفريقية متوجهين إلى أسياد متلبسة شخصا ما، يطلبون منها السماح. إما السيدة في الثوب الأخضر فهي واحدة من عميلات الحاجة أنهار الدائمات.



ترقص المرأة ذات الثوب الأخضر للأسياد الخاصة بها على إيقاع الدَرَبُكَّات عند الحاجة أنهار، يرافقها راقص محترف سوداني، يعزف على الشكشوكة، بينما يحزم وسطه بحزام مزود بخلاخل وحوافر الأغنام لكي يخلق إيقاعا خاصا.



عازفون من السودان يعزفون على الطنبورا ويدقون الطبول في حفل للزار عند الشيخة أنهار.

خاتمة

وصلت إلى هذا الجزء من الكتاب حينما كنت أعمل في وزارة الخارجية في لاهاي عام 1988، وكانت هذه هي نهاية الرحلة الاستكشافية التي بدأتها قبل سنة ونصف مستغلا أوقات فراغي، والتي أمدتني بقدر واسع من بهجة تحد كبير، ضمن تحديات متعددة في فترة السنوات الأربع ونيف التي قضيتها في مصر.

كان رحيلي آنذاك إيذانا بأني سأفتقد الموالد التي أحببت زيارتها ؛ مثل مولد السلطان فرغل في أبي تيج وموكبه الذي تشارك فيه أعداد غفيرة من الجمال، وكذا مولد محمد العراقي في " ميت السباع" حيث يقوم بعض الدراويش بغرز مسلات حديدية في وجناتهم ، كما شاهدت ذلك في عام 1966.

كذا المولد المسيحي للقديس جورج في ميت دمسيس؛ حيث يقوم الكهنة المتخصصون هناك بطرد الأرواح الشريرة.

سأفتقد موالد كثيرة لم أعرفها بعد، والتي لن تتاح لي الفرصة لكي أتعرف عليها.

كنت أود أن أواصل محادثاتي مع الشيخ زاهر، والمشايخ الآخرين ، لكنني من ناحية أخرى أعتبر نفسي محظوظا، بأن نقلي إلى لاهاي لم يتم قبل ذلك.

ينتابني دائما ذلك الإحساس بأني وُلدت متأخرا جدا. كنت أفضل لو أني عشت قبل ذلك؛ حتى أستطيع أن أتجول في القرن التاسع عشر أو قبله، أنقب عن أشياء لم يرها أو يصفها أحد قبلي. مع ذلك فهناك الكثير المتوفر لمن يريد أن يشاهد، ولمن يرغب في الاستمتاع هذه الأيام.

إن الدهشة التي تفاجئك في مصر وهي: كيف أنك خلال تجوال لمدة عشر دقائق بعيدا عن البيت، أو سفر لمدة عشر ساعات على الأكثر، تجد نفسك مكتشفا لأشياء لا تعرفها. لم أفعل سوى أن أكشط السطح قليلا، حتى أجد نفسي أمام دنيا مغايرة، لم يكلف أحد نفسه خلال الخمسين عاما الماضية، مشقة التعرف عليها. ومن الوهلة الأولى بدت هذه الدنيا صعبة الاختراق والتوغل فيها، دنيا ينشغل فيها الفقراء بممارسة طقوس غريبة، ويروون لبعضهم بعضا حكايات أكثر غرابة. لكني، بالتدريج، لمست مودة قلبية منهم وانفتاحا صادقا. وجدت سماحة آسرة، وتقاليد غنية، ورغبة حقيقية في التقوى.

كان أهل التصوف والجماعات المحيطة بهم كرماء بحق، ومتسامحين للغاية. لم أدَّعِ إطلاقا بأني مسلم، حتى يُسمح لي بالتجوال بين ظهرانيهم. لم تكن هناك مشكلة - تقريبا- في التقاط الصور الفوتوغرافية.

كانوا فخورين بمشايخهم وبأنفسهم .

ولما كنت واحدا من "الموالدية "لفترة أكثر من سنة، وجدت صعوبة في الرحيل عن أصدقائي الدراويش.

آمل أن يلهم كتابي هذا البعض أن يواصلون رحلة الاستكشاف.

إن الموالد، والطقوس الشعبية، وتواتر الأولياء، ظواهر موجودة بقوة في مصر، أعتقد أنها سوف تواصل وجودها في المستقبل.

أمستردام يناير ١٩٨٩



العودة من المولد في جبل الطير

ملحق

أناشيد صوفية معاصرة

تكون الموالد، عادة، هي المكان الملائم للأناشيد الصوفية، ينشدها المنشدون أثناء الذكر. هناك كم هائل ومتزايد النمو من المنشدين، يسجلون أناشيدهم على شرائط " الكاسيت". ثمة أسماء مشهورة مثل الشيخ عبد النبي الرنان، وسيد إمام، والبلبيسي، والدشناوي. هؤلاء حظوا بشهرة واسعة باعتبارهم من شيوخ المنشدين. يحظى بالشهرة أيضا من شباب المنشدين؛ كل من سيد وموسى، حيث يقومان بالإنشاد معًا.

سأقدم هنا مثالا مختصرا بعض الشيء لـ" ليلة من ليالي السيد البدوي في مدح الرسول "، كما هو مكتوب على واجهة شريط "الكاسيت"، من إنشاد سيد عسر المعلاوي والتي تستمر حوالي أربعين دقيقة.

بعد التقدمة التي عادة ما تكون تقليدية، يتزايد تسريع الإيقاع من البطء حتى السرعة العالية. إن النص الذي يُنشد بأكمله بالعامية المصرية، لا توجد فيه مقاطع شعرية تقليدية قديمة. والنص هنا يعطي الإحساس بأنه مزيج من الارتجال والنظم العامي. هذا النوع من النظم، غالبا ما يدخل فيه المنشد ابتهالات موجهة إلى الأولياء، كما أنه يحتوي على شذرات من الأمثلة والحكمة الشعبية.

إن " الُبنية " التي سيرد ذكرها في النظم التالي ؛ ترمز إلى المحبوب، الذي قد يكون الله. كما أن التعبيرات الصوفية مثل الامتنان والرضى والقبول بالمقسوم هي درجات في " الطريق" .

(مفتتح)(*)

الله أكبر رماني في الهوى وعد
وصبحت أنا عيان مبتلى وعدى
ما لقيتش غير الحبيب النبي
اللي هو سبب سعدي
ياما ناس حبوا الحبيب النبي قبلي
وأنا كنت في المهد حبه ملا قلبي
ومادام دخلت العيادة يا روحي
اعمل العملية ونشوف مين اللي جرحك الجرح ده
....
ياما ناس مساكين
لكن في الأرض أغنيا
وناس ما معهاش ولا مليم
لكن في الحب أغنيا
إذا رفع إيده لسيده

(*) قمت هنا بإيراد النص الأصلى مباشرة من شريط الكاسيت محتفظا بالتعبيرات العامية كما هى. (المترجم)

يزيده

يلاقي جميع طلباته مقضية

....

يا فاعل الخير

ابشر دايما بالخير

الرك مش على العمل يا ولدي

الرك ع النية

الرك مش ع العمل يا بو السباع

الرك ع النية

....

البنت حلوة قوي يابا عزيز

البنت حلوة قوي يا امه زينب

البحر واسع قوي يابا يا بدوي

يا ما فرّق مراكبيه

واللي غرق في حب البُنيه

ما لوش ديه

...

وفي دخلة القطر

ما حا يكونش غيري أنا وهيه

....

يا بو المقام عالي

طه النبي الغالي

حبيبي يا نبي

ضميني يا نبي

ما تصلوا بينا ع النبي

تعالوا لبيته

لحد باب بيته

بالدمع انا ناديته

لما تجى لي

حبيبي يا نبي

ما تصلوا بينا ع النبي

...

يا بخت مين زاره

اتملى من أنواره

حبيبي يا نبي

ضميني يا نبي

...

السر جوه البير يعلم بيه

اللي خلق الخلق يابويا

يعلم باطنه وخافيه

يا با يابدوي

ظهرت العلامة فيه اللي في طريق النبي يهديه

ما دام على بابه

...

والبحر واسع يا بو الأنوار

البحر واسع قوي يا با

عيني

والكل غرق فيه

....

عمال أنادي عليكي

يا امه زينب

يا ماما .. يا ماما

ليه وانتي ما بتردي

عيني

ولا ما عجبتكيش
ولا كل من لبس العمة يا روحي
قالوا عليه درويش
الرك ع العمل
مش كلام تهويش
واللي قالته ماما الكريمة
قالوا لي
أهل البلد صبحوا من المجانين
قالوا عليهم سكرانين
لكن ساعة الصلاة صاحيين
وتقولوا عليهم غفلانين
دول من صفوة العالمين
....
جريح رماني الهوى في وحدتي حيران
بحب حبيبي محمد نفسي أزور حضرة النبي
وأتملى بالرضا
والأيد قصيره يا ماما
ومش طايله

....

واجب على المبتلى يبكي على ولده

مكتوب ع الجبين

واهرب منه فين

وعد وانكتب

لازم تشوفه العين

...

تعالوا يا اهل البلا

نشكي لبعضنا حالنا

نقعد مع بعضنا

ما دام حالكم وافق حالنا

يا رب ورينا طريقنا

...

يا حنا

قوم افتح لنا الباب

خلينا نشوف حالنا

....

يا بعيد على عيني

وبقلبي شايفك

إزاي انساك

وبسمة شفايفك

إمتى حا تجرب

سهر الليالي

عشان تعذرني

يا بو قلب خالي

...

بُنية حبتني

وطلبت وصلها مني

شغلتني

العلم هيا والنور هيا

الحقيقة هيا

هيا .. هيا .. هيا

غرامها عليا حنانها عليا

يبقى شويه

....

يا مه .. يا مه

راعيني يا مه

يا روحي يا مه

مجروح يامه

عليل يا مه

عيان يامه

بُنيه حبتني

وطلبت وصلها مني

أنا قلت ليه يا بنية

بتبعدي عني

وساده ودانك عني

قالت

كلامك تقيل يا ولدي

...

نظره يابا جوهري

يا عفيفي

يا ابو منصور

أنا قلت ليه يا بنية كده

تبعدي عني

قالت كلامك تقيل يا ولدي

....

يا زينهم

سيدنا علي

...

إذا كنت عاوز الوصال تعال قريب مني

هات لك دليل يضمنك

ووكيل يضمني

بس أنا ليا ناس في الحي

حابتني

....

البنت فارشه الملايه

وبتقول تعال

بروحك وبقلبك

وبلسانك

إوعى تتعالى

على مين حا تتعالى

تعال .. تعال

يا حبيبي تعال

أبقى ازاي مخلوق من طين

وعلى البساتين أتعالى

....

والله

أولاد النبي حلوين

سيدنا الحسن

وسيدنا الحسين

وسيدي على زين العابدين

....

نزلت بحر المدد بتفرج على اللي فيه

لقيت ولاد حضرة النبي

ساحوا وناحوا فيه

يا نازل البحر حرّص

وأوعى من اللي فيه

....

الجرح زاد عليا وأنا لسه على حالي

الخلق طابت يا سيدي زين العابدين

وأنا لسه على حالي

أشكي لمين حالي

أنا ان شكيت الأسى

الخلق تضحك عليا

الخلق تضحك يابا على حالي

انا بنعي على حالي

واشكي لمين لوعتي

يا عسكري

يا بو السباع

واشكي لمين حالي

أنا ان شكيت الأسى يا مه

ما اشكيش لعزالي

ما اشكيش الا

لمن يعلم أسراري

واقف حدا الست ام هاشم

وانده وأقول

يا ماما يا كريمة

...

يا سيدنا الحسن

يا سيدنا الحسين

وحبيبكم

وزين العابدين

مدد يا زين العابدين

وانده وأقول

ماما ياغاليه

...

سيدي يابدوي يا با يا بدوي

حبيب الرسول يا با

يا بدوي

عمي يا بدوي

السيد البدوي

شرفت طنطا يا بدوي ...

أزورك في طنطا يحلى لي

دايما يا با على بالي

بنادي والله

يا رسول الله
على نور الله
نظره إليّ
يا دسوقي
قلبي محروقي
نظرة يا جيلاني
نظرة يا رفاعي
يا مداوي سم الأفاعي
بنادي الله
يا رسول الله
يا مولانا
يا سيدنا الحسن
نظرة يا سيدي علي.

إن متن هذه الأغنية بأكمله بالعامية المصرية ، وغالبا لا تستخدم في تلاوة النصوص الدينية . هذه النصوص التي تُستخدم فيها اللغة العربية الفصحى، لذا يمكن اعتبار عدة لغات مثل التركية والسندية(*) والبنجابية، وإلى حد كبير لغة الأوردو والباشتو(**) لغات مدينة في تطورها إلى حد كبير لتعاليم مشايخ الطرق الصوفية، الذين استخدموا اللغات الدارجة لهذه البلاد بدلا من العربية أو الفارسية. هاتان اللغتان اللتان كانتا لغتَي الكتابة الرسمية آنذاك.

انتهى

تمت الترجمة إلى العربية في أمستردام بتاريخ 30 أكتوبر 2007

(*) اللغة السندية هى لغة هندو – آرية التى يتكلم بها حوالى ١٨ مليونا فى باكستان وحوالى ٢ مليون فى الهند (المترجم).
(**) هى اللغة الرسمية فى أفغانستان وتتحدث بها قبائل البشتون (المترجم).

المؤلف فى سطور:

د. نيكولاس بيخمان

- ولد فى هولندا عام ١٩٣٦، التحق بجامعة لايدن فى هولندا، وحصل على درجة علمية فى دراسة الإسلام. درس اللغات الشرقية العربية والتركية، أمضى سنوات حياته العملية فى وزارة الخارجية الهولندية .
- عمل فى مراكز مختلفة من بينها سفير لهولندا فى الأمم المتحدة .
- كان سفيرا فى القاهرة بين عامى ١٩٨٤ و ١٩٨٨.
- اهتم بالتصوير الفوتوغرافى منذ سنوات طويلة، ومنذ العام ١٩٨٧ قام بتصوير الشخصيات المرتبطة بأحداث ذات ديمومة طويلة.
- نشر كتابه الأول المصور عام ١٩٩٠، بعنوان الموالد والتصوف فى مصر، كان هذا الكتاب بداية الاهتمام العميق والمتصل للمؤلف بالتصوف .
- وحينما عمل فى منطقة مقدونيا ما بين عامى ٢٠٠٢ – ٢٠٠٤ أنتج كتابا مصورا عن الطريقة الرفاعية بعنوان "سكوبيا أحباب الله" عام ٢٠٠٧.
- يعمل حاليا فى كتاب مصور بعنوان "العيش فى التصوف" عن الطقوس الصوفية فى الشرق الأوسط بما فيها مصر، ومنطقة البلقان.

المترجم فى سطور:

رءوف مسعد

درس الصحافة والمسرح، وعمل بالصحافة والمسرح والترجمة فى كل من العراق ولبنان ومصر، وأخيرًا فى هولندا حيث يعيش.

- من أعماله الروائية: بيضة النعامة، التى تمت ترجمتها إلى خمس لغات أوربية.

التصحيح اللغوى : أحمد نزيـه

الإشراف الفنى : حسن كامـل